جائزة الشارقة للإبداع «٣»

ماهر رجا يوسف

صمت بني آوى

«مسرحية»

النص الفائز بالجائزة الأولى في مسابقة جائزة الشارقة للإبداع - الإصدار الأول - الدورة الأولى ١٩٩٧



الشارقة عاصمة ثقافية للوطن العربي ٩٨
منشورات دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة ١٩٩٨م

صمت ابن آوى

مسرحيــة

تأليف

ماهر رجاء يوسف

منشورات دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - ا.ع.م
١٩٩٨م

الطبعة الأولى ١٩٩٨م

منشورات دائرة الثقافة والإعلام

حكومة الشارقة

دولة الإمارات العربية المتحدة

٧٩٢.٩٩٥٣٥	ماهر رجاء يوسف
م ر . ص	صمت ابن آوى / ماهر رجاء يوسف. ــ الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام ،١٩٩٨.
	١٣٢ص: ٢٠سم. ــ (سلسلة جائزة الشارقة للإبداع: ٣)
	ــ النص الفائز بالجائزة الأولى في مسابقة الشارقة للإبداع الدورة الأولى ١٩٩٧ في مجال المسرح.
	١ ــ المسرحيات العربية أ ــ العنوان
	ب ــ السلسلة

تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة المركزية في الشارقة

غلاف: محمد بلعشر

إخراج: أمين زحير

الإهداء

إلى أمي التي مازالت تحكي عن فلسطين كأنها أخرجت منها بالأمس.



تقديم

في خريف عام ١٩٤٨، هاجمت العصابات الصهيونية قرية فلسطينية صغيرة تقع بالقرب من القدس المحتلة هي قرية «بيت صفافا» ... وقد قاتل أهل القرية ببضع بنادق عتيقة وقليل من الذخائر فاستشهد كثيرون وهم يتشبثون بحجارة أرضهم وجدران بيوتها وأشجار حقولها، فيبست أيديهم ودماؤهم وهي قابضة على التراب الحبيب ..

حين توقف القتال، كان نصف أراضي «بيت صفافا» قد أصبح تحت الاحتلال .. ولأن الصهاينة كانوا قد استكملوا آنذاك المرحلة الأولى من مخططهم لاحتلال كامل تراب فلسطين فقد عمدوا إلى فصل المناطق التي احتلوها عن المناطق الأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة.. ولجأوا من أجل ذلك إلى مد سور من الأسلاك الشائكة اخترق أراضي عدة قرى لم يكونوا قد تمكنوا من احتلالها كاملة .. وكانت «بيت صفافا» بين تلك القرى المشطورة نصفين: واحد تحت الاحتلال، والآخر يبكيه من وراء الأسوار..

«بيت صفافا» صورة فجائعية نابضة للمأساة الفلسطينية .. فهناك بيوت استيقظت ذات صباح لتجد غرفاً ومصاطب وأبواباً منها قد أصبحت تحت الاحتلال وفي ظل أبراج المراقبة والبنادق، بينما بقيت غرف أخرى وجدران وعرائش تقف في الجهة المقابلة مجرّحة العيون واجمة تنظر إلى بقايا البيت.. ثمة مزارع شطرت إلى نصفين .. حقول، وبساتين وأشجار بدت كأسجاد آدمية مبتورة .. وكذلك انشطر شمل العائلات في «بيت صفافا» وانشطرت قلوب أبنائهم وذكرياتهم وأيامهم، وانكسرت لقاءاتهم على السور الشائك ..

ولعل أغرب ما في الأيام والحوادث أنها تتوق أحياناً إلى إعادة نفسها في علاقة غريبة بين الماضي والحاضر.. فما يحدث في فلسطين الآن لايبدو بعيداً عن ذاكرة «بيت صفافا» وتجربتها.

«بيت صفافا» هنا، ولأن الكلام أعزل، تظهر في المشهد مثل قرية مسحورة، الهواء فيها مقنوص برصاص الجنود، والليالي محروسة بالخوف، .. ولذلك فإنها تحاول .. تحاول أن توقظ العاصفة بالصمت.. باللغة التي لاتقال ولاتُسمع إلا كصدى عواء حزين يطلقه ابن آوى في ليالي الشتاء الباردة.

شخصيات المسرحية

محمود القاسم : فلسطيني من أهالي قرية «بيت صفافا» في حوالي الأربعين من عمره. يقيم مع ابنة أخته الغائبة، في داره الواقعة في الجزء المحتل من القرية على بعد حوالي خمسين متراً من السور الشائك.

يعمل محمود في صناعة المحاريث الخشبية ويقوم بهذا العمل في بيته.

كاليشر نيمروفسكي : يهودي بولوني. ضابط متقاعد في حوالي الخامسة والأربعين من العمر. قدمه اليسرى مصابة في معركة سابقة، ولذلك في مشيته عرج واضح.

زينب : ابنة أخت محمود، عمرها عشرة أعوام.

(تدور جميع أحداث المسرحية في بيت محمود القاسم في أواخر شتاء عام ١٩٦٧)

المشهد الأول

" بيت صفافا "

[الردهة الداخلية من بيت محمود القاسم. مكان فسيح يتصل بغرفة علوية عبر درج خشبي في عمق ومنتصف المسرح. وتقود الدرجات الخشبية النازلة إلى الجهة الأخرى في العمق إلى باب خلفي يفضي إلى حديقة المنزل.

إلى اليمين نافذة تطل على درب ترابي. وهناك نافذتان، واحدة قرب الدرج وفي العمق، والثانية إلى اليسار قرب الباب الرئيسي المؤدي إلى الخارج.

على أرض الردهة بساطان صغيران، وفي الركن الأيسر مفرش عليه مساند من الطراز العربي.

في بعض الأنحاء علقت مناديل فلسطينية مطرزة، وفي الزاوية اليمنى حصان خشبي هزاز للأطفال له من الأسفل قاعدة قوسية ويبدو قديماً ومتآكلاً.

تبدو في الردهة مدفأة حطب معدنية تلتصق بالحائط وذات كوة ضيقة يحيطها السواد.. بجانبها رفش ومعول... مطرقة، منشار، وقطع من الخشب، ومحراث خشبي لم يكتمل صنعه بعد.

على الحائط الأيسر يتدلى سيف عربي قديم، وإلى جانبه قصبة (يرغول*) وعلى الحائط الأيمن طبق مشغول من القش يستعمله الفلاحون لحمل الخبز من التنور. وقد علق إلى جانبه دثار أسود صوفي مما يستخدمه الرعاة.

- في أمسية شتائية باردة.. الظلام كثيف تخترقه ومضات البرق. صوت هطول المطر في الخارج يختلط بقصف الرعود وهبات ريح عاصفية، وكفاح الأشجار بوجه الريح.. ويُسمع عواء بنات آوى قادماً من بعيد..

منذ البداية هناك صوت ضربات فأس في الحديقة مع همّة نفس ثقيل. وتخفت شيئاً فشيئاً. فيما تنفتح إحدى النوافذ مضطربة بفعل هَوجاء الريح.

- يدخل محمود القاسم من الباب الرئيسي مبللاً بالمطر.. ملامحه لاتظهر بسبب الظلمة. يغلق الباب خلفه ويتجه بخطى ثقيلة إلى النافذة المفتوحة فيغلقها . يشعل السراج المعلق على إفريز الدرج الخشبي، ويتناول الدثار الصوفي ويلتف به، ويمضي ليشعل النار في المدفأة].

* آلة نفخ موسيقية، عرفت في فلسطين أكثر من سواها كآلة موسيقية شعبية.

محمود : (لنفسه) ليلة قاسية.. (لفحات البرودة في تنفسه) كان الشتاء خبأ كل عواصفه بانتظارها! [يتردد عواء ابن آوى يشعل محمود النار في المدفأة، ويفرك يديه قبالتها مستشعراً الدفء... يحدث نفسه] أين يمكن أن تكون!؟ أيمكن أن أكون قد أخطأت؟ [صمت] ولكنها الشجرة ذاتها [يقف] ها قد مضى أسبوع آخر.. [يزفر] سبعة أيام أخرى بلا جدوى.

[يتناول المحراث الخشبي من جانب المدفأة ومطرقة حادة ويبدأ العمل عليه بطرقات خفيفة.. في هذه الأثناء يظهر ظل زينب في العمق قادمة من الغرفة العلوية، وتقف عند أعلى الدرجات الخشبية يتطاول ظلها في ضوء المصباح، ويعلو صوت العاصفة وعواء ابن آوى].

زينب : [صوتها في توجس] خالي محمود [صمت] يا خالي.... [لم تره بعد وتهبط درجتين]... خالي محمود، أين أنت؟

محمود : [بصوت ثابت ودون أن يلتفت] ألم تذهبي للنوم بعد؟

زينب : آه.. [تقفز الدرجات نحوه] أمسكتك. كنت تتقصد ألا ترد علي. [تعانقه]

محمود : [متابعاً عمله] لماذا لم تنمي حتى الآن يا زينب؟

زينب : أين كنت؟ ناديتك كثيراً ونزلت مرات ولم أجدك!

محمود : سألتك لماذا مازلت صاحية؟

زينب : [تجلس بجانبه] خالي.. أنا خائفة.

محمود : ممّ تخافين؟

زينب : الظلام شديد هذه الليلة.. أنا وحدي في الغرفة فوق.. أسمع الريح كأنها تصرخ داخل الأشجار.

محمود : تصرخ..!.. [يبتسم] يا لشقاوتك!

زينب : [تهمس] سمعت ضربات في الحديقة [تقترب] رأيت من النافذة طيفاً أسود يحوم في الفناء.

[لا يجيب محمود ويواصل عمله]

زينب : [بعد أن تنظر اليه] لم تصدقني!.. أنت هكذا دائماً.
[صوت ابن آوى مرة ثانية]
زينب : [ساهمة ومغمضة. تقف] ابن آوى.. [صمت]
محمود : هيا يا زينب.... إلى النوم
زينب : [ساهمة وكأنها لم تسمع ما قال خالها].. خالي.. هل هو حزين؟
محمود : إنه ينادي فقط.
زينب : ينادي من؟
محمود : لا أدري.. ربما شخصاً ما أو شيئاً بعيداً.
زينب : خالي أتعلم أنه ليس ابن آوى حقيقياً!؟
محمود : [متابعاً عمله ودون أن يلتفت لها] ليس ابن آوى!؟
زينب : [بحماس] أجل. ألا تعرف أنت هذا؟
محمود : ماهو اذن؟
زينب : [تهمس كأنها تفضي بسر] إنه أمير مسحور.
محمود : [باسماً] من أخبرك بذلك.
زينب : جارتنا أم خالد.. ووعدتني أن تروي لي حكايته ذات يوم.
[عواء ابن آوى]... خالي أتعرف أنت الحكاية؟
محمود : أية حكاية؟
زينب : [محتجة] أنت لا تصغي إليَّ..
محمود : [متابعاً عمله] بل أصغي.
زينب : سألتك عن حكاية ابن آوى.
محمود : [يجاريها] ابن آوى.. أجل. لكن الوقت متأخر الآن.
[يأتي عواء ابن آوى من بعيد]
زينب : هه ها هو.. ! إنه ينادي
[ساهمة مع أفكارها تذهب إلى أقصى الجهة الأخرى وتفتح النافذة وتنادي]
يا ابن آوى لماذا تنادي؟
محمود : زينب! كفى شقاوة. أغلقي النافذة واذهبي إلى النوم. عليك أن

تستيقظي باكراً لتذهبي إلى المدرسة.

زينب : [بشدة] لن أذهب.

محمود : [يلتفت اليها مستغرباً] ماذا ؟!.

زينب : [بجدية، باسمة ومنتصرة] غداً يوم الجمعة.

محمود : [يبتسم ويشير اليها ببنانه] بت تتعبينني.

زينب : [تقبل عليه] خالي احك لي حكاية.

محمود : [متابعاً عمله] تعرفين أنني لا أتقن قص الحكايات.

زينب : أرجوك ياخالي. حكاية واحدة وسأذهب إلى النوم.

محمود : [دون أن يلتفت] الآن لا أتذكر شيئاً.

زينب : بل تتذكر.. ستتذكر إن أردت.

محمود : أوف.. أنتِ لا تُغلبين أبداً.. حسناً. إجلسي [تجلس بسرعة إلى جانبه]
الآن، من أين تريدين أن نبدأ ؟

زينب : كما تبدأ جميع الحكايات.

محمود : طيب.. [يسهم قليلاً ثم يبدأ] . كان ياما كان في قديم الزمان..

زينب : [تقاطعه] ألا تعرف سوى هذه البداية؟

محمود : ولكن أنت طلبت ذلك.

زينب : كلما حكيت لي حكاية تقول كان ياما كان. فأحس أنها قديمة كثيراً.

محمود : لا ليست قديمة. استمعي وستعرفين.. [يتابع الحكاية]
كان هناك ملك عادل أحبه جميع الناس في مملكته. وكان لهذا الملك بنت وولد. كان اسم البنت «ريش الطيور» واسم الولد «ضوء القمر».. وقد عاش الملك حياة سعيدة في القصر القريب من الغابة، بعد أن حكم بين الناس فعدل، وقاتل الظالمين فانتصر عليهم. فعمت الخيرات وشاع الأمان في كل أنحاء المملكة. وعاش الناس هناك حياة طيبة، فلا فقير يشكو ولا مظلوم يبكي. وفي يوم من الأيام بدأ أهل تلك البلاد يلاحظون أشياء غريبة لم

يعهدوها من قبل في المملكة.. فمرة لاحظوا أن العصافير كفت على الغناء، ومرة أخرى شاهدوا أجمل أزهار الحقول تذبل.. ثم فوجئوا بعد ذلك بأن الينابيع العذبة راحت تجف شيئاً فشيئاً.

زينب : ماذا كان يحدث؟

محمود : هذا ما سأله الملك للحكماء والوزراء والعرافين حين اجتمع اليهم ليتشاوروا في الأمر..

قال أحد الوزراء : لم يحدث هذا في مملكتنا من قبل!

وقال حكيم : أخشى يا مولاي أن تكون لعنة قد حلت علينا.

وقال آخر : يا مولاي، نشعر أننا عاجزون عن معرفة سبب هذه المصيبة.

لكن كبير الحكماء، وهو شيخ جليل، تقدم من الملك وقال: يا مولاي الملك.. بالأمس رأيت في المنام رؤية مخيفة.. رأيت في ما يرى النائم ناراً تندلع من الغابة المجاورة. ولا أظن تلك النار إلا علامة شؤم.

زينب : ماذا يعني شؤم؟

محمود : يعني أن هناك أمراً سيئاً سيحدث.

زينب : وماذا فعل الملك؟

محمود : كان الملك يثق بكل ما يسمعه من كبير الحكماء. ولذلك ففي اليوم التالي أرسل عدداً قليلاً من الفرسان إلى الغابة المجاورة ليبحثوا عن ذلك الشؤم..

وما هي إلا ساعات حتى عادوا مذعورين ليخبروا الملك بما رأوا!

زينب : ماذا رأوا؟

محمود : رأوا ساحرة شريرة!.. أجل. ساحرة شريرة عجوز كانت تختفي في الغابة. وقد أصابت شرورها الطيور فكفت عن الغناء، وضربت سحرها على الأزهار فجعلتها تذبل، وشربت من مياه الينابيع فجففتها وحرمت المملكة منها.

زينب : الساحرة الملعونة!.. وبعدين خالي؟

محمود : قرر الملك القضاء على الساحرة طبعاً.. ولذلك فقد أمر على الفور بتجهيز مئة من الفرسان الشجعان. وفي صباح اليوم التالي ارتدى الملك درعه وتقلد سيفه وانطلق على رأس الفرسان المئة نحو الغابة المسحورة باحثاً عن الساحرة الشريرة العجوز.

[زينب توشك على النوم]

عند مشارف الغابة، وزع الملك فرسانه في أماكن مختلفة وأمرهم بالبحث وراء كل شجرة.

وما إن أصبحت الشمس في منتصف السماء حتى كان الملك وفرسانه قد عثروا على مخبأ الساحرة، فدمروه وأحرقوه ثم انطلقوا يلاحقونها..

كانت الساحرة قد علمت بأمر الملك وجنوده فسارعت إلى الهرب وهي تنتفض من الغضب.. وحين حلّ الغروب كانت قد غادرت الغابة كلها ورحلت إلى مكان بعيد.. وهناك راحت تدبر الحيل كي تنتقم من الملك، وتنتظر اليوم الذي تحقق فيه انتقامها..

[زينب نائمة الآن. يغطيها محمود بسترته ويحملها متجهاً إلى الدرج الخشبي.. فجأة يُسمع هدير سحيق. ويعلو شيئاً فشيئاً، ثم يصبح صخباً عالياً يقتحم هدوء المكان بشدة.. وما هي إلا لحظات حتى تتضح الأصوات :

هدير سيارات، حركة دواليب، اهتزاز كرفانات - نداءات وأصوات باللغة العبرية وهي غير واضحة.. صوت لاسلكي متقطع...

- محمود يرخي زينب على الدرجات ويسرع إلى النافذة الأولى فيفتحها، وحين لا يرى شيئاً يسرع ليفتح النافذة الثانية، ويطل منها ثم يتراجع ثم يهم بالتوجه نحو الباب، لكنه يتوقف فجأة حين يتعالى وقع أقدام شخص قادم : وقع قدم حاد، يليه وقع قدم أخرى ضعيف ومكتوم.

الريح والبرد والرعد السحيق يدخل من النافذتين وبعد قليل، ينشق الباب عن نور أصفر وئن ببطء فيظهر رجل طويل القامة

ضخم الجثة ذو شعر أشقر مغبر ويقف بالباب وهو ينظر مباشرة نحو محمود].

كاليشر : [بنبرة عسكرية ثابتة] كاليشر.. كاليشر نيمروفسكي..
[يجيل نظره في الردهة ثم يتجول على مهل متفقداً المكان]
أرجو ألا أكون قد أزعجتكم..
تسكنون منزلاً لطيفاً [يطل من النافذة المفتوحة].. أنتم قريبون كثيراً من الحدود [يلتفت] ربما أن أقرب جار إليكم هو على مسافة مئة متر أو أكثر... لستم وحدكم منذ الآن.. ستصبحون جيراناً لكيبوتس* "غوديم".. سنقيمه هنا على مقربة.. أهلاً.. أهلاً..
[صمت].. أنا أعرف هذه المنطقة.. أعرفها منذ زمن. كنت هنا قبل خمسة عشر عاماً [تكاد قدماه أن تصطدما بزينب النائمة على الدرجات الخشبية] آه.. ثمة من ينام هنا!.. زيارتي متأخرة ربما؟ هه؟..
سأذهب الآن.. [يسير بثبات وهو يجر قدمه العرجاء ثم يتوقف عند الباب وينظر للخارج] أوه... كم هو رائع الليل فوق هذه الحقول والبيوت النائمة.. رائع... آه "بي سيدر"** [يلتفت بهدوء شديد] ليلة هادئة أيها الجار.. الجار العزيز..
[يخرج]
[يبقى محمود واقفاً للحظات بلا حراك، ثم ينحني قليلاً فيحمل زينب ويصعد الدرجات. عويل ريح. اطفاء تدريجي ثم يعم الظلام حين ينفخ محمود على السراج المعلق على "الدرابزين" وتسمع ضربات فأس في الحديقة مع همة نفس ثقيل ثم تتوالى ظلال على الحيطان ووقع قدمين واحدة ثابتة والأخرى مكتومة].
[صوت ابن آوى يأتي من مكان بعيد].

* تجمع سكني يهودي أشبه بمستوطنة، وله تقاليد عسكرية.
** حسناً بالعبرية.

المشهد الثاني

"غوديم"

[بعد ظهر اليوم التالي..
محمود يجلس في ردهة البيت، ويطرق بمطرقته على نير المحراث الذي يقوم بصنعه... يعلو صوت كاليشر آتياً من الخارج]

صوت كاليشر : [ينادي على أشخاص يعملون في الكيبوتس] تراجع قليلاً.. قليلاً أيضاً.. نعم هكذا [صوته يتداخل مع طرقات محمود على خشب المحراث].
.. أنت هناك، الشتاء يكاد ينقضي ولم ينتهِ سباتك الأبدي. إحمل معهم.. نعم. هيا.. [تتداخل الأصوات في الخارج] إسمع.. يا نئمان، أين ذهب الآخرون؟ قلت لك نادِهم.. هيه! لا تنسَ "زهافا".. أين تختفي هذه الفتاة بحق السماء؟ قل لها أن تخرج الآن.. اللعنة، سيكون لديها متسع من الوقت لتداعب أذني "شولومو" الكبيرتين كيفما تشاء .

[يدخل كاليشر ويسير ببطء مقترباً من محمود الذي لا يشعر بقدومه]

كاليشر : .. [فجأة] أنت هنا.. !.. اعتقدت البيت خالياً وسط هذا السكون..
[صمت، وكاليشر يتجول متفقداً الردهة] أمس كانت ليلة قاسية.. حقاً.. لم أخلد للنوم حتى الرابعة صباحاً.. آمل أن يكون السيد قد نال قسطاً مريحاً..
[الصمت هنا هو نوع من الحوار التعبيري من خلال طرقات محمود على خشب المحراث]
.. حين أخبروني أن علي أن أتحرك بمجموعة العمل إلى منطقتكم

لبناء كيبوتس "غوديم" فرحت، فرحت حقا، أقول لك، لقد حرك اسم هذه المنطقة ذكرياتي القديمة.. [بتأمل] بيت صفافا [يلتفت إلى محمود].. اعتقد أنها تعني بيت الصفصاف.. هذه قرية رائعة [ينظر من النافذة في الجهة اليسرى] خلف ذلك التل كان لنا موقع صغير، منذ سبعة عشر عاما.. كنت أنا، وضابط آخر وعدد من الجنود [صمت وتتزايد طرقات محمود بإيقاع حر].. ليس من اللائق [يحك رأسه بظاهر كفه] أن أتحدث عن الجندية في مناسبة كهذه، ربما أن هذا يزعجكم، خاصة أننا لم نتعارف جيداً بعد.. [صمت] لكن [يجلس قبالة المدفأة] ماذا أفعل.. هذا يبدو وكأنه قدرنا [صمت وصوت المطرقة].. لا يمكنني أن أدعي أنني مازلت شابا فأقل برودة في الطقس تستطيع أن تحد من طاقتي [يحرك كفيه بشكل دائري قبالة النار] حسنا.. حسنا.. آه الأيام الماضية كانت شتاءاتها أقل رعونة.. أمس كان علي ان ألتحف تلأ من الأغطية لأشعر ببعض الدفء.. [يقف] أرجو أن لا تترددوا في طلب أغطية اضافية من الكيبوتس إن ساءت أحوال الطقس أكثر.. أي شيء آخر أيها السيد.. أي شيء.

[يجلس] آ.. كنت أتحدث عن القرية [كأنه أرسل خياله بعيداً].. قبل سبعة عشر عاماً كنت هنا، في "بيت صفافا". كنت أستيقظ دائماً عند لحظات الفجر الأولى.. أصنع قهوتي ثم أجلس في موقعي وأتأمل روعة تلك الحقول والتلال.. كانت تفصلنا بضع مئات من الأمتار عن ؟"بيت صفافا" [بتأمل] بدت لنا سحرية ووديعة دائماً [يبتسم].. كنت أتمنى أن يبقى الفجر حتى لا تتغير "بيت صفافا"، فحين تشرق الشمس وتلتهب كانت "بيت صفافا" تلتهب أيضاً وتصبح قاسية، قاسية.. [صمت وطرقات محمود حادة].. وعند الغروب يعم الصمت.. [صمت] الصمت في بيت صفافا ليس هدوءاً.. ليس بوسعك أن تعبر عنه بهذه الكلمة

[طرقات محمود أكثر ظهوراً] أوه.. معذرة، أنا أثرثر كثيراً اليوم. (يتناول قبعته) عليّ أن أذهب الآن.. [أصوات نداء من الكيبوتس] هه! ثمة من لايريد أن يفارقني [هدير جرافة].. حسناً، سأغادر الآن..

[يرى الحصان الخشبي فيتوقف قرب الباب ويلتفت وهو يحك رأسه مثل وعل بظاهر كفه].

كاليشر : [بأسلوب ثعلبي] لا أدري لماذا خيل إليّ أنك لم تكن وحدك بالأمس!

: [ترتفع جلبة الكيبوتس]

صوت زينب [من الخارج] خالي.. خالي..

[تظهر بالباب وتقف ثم تركض نحو محمود]

زينب : خالي محمود، هناك غرباء خلف دارنا، معهم سيارات كبيرة تحفر في الأرض وينصبون خياماً وأسواراً.. و.. [ترى كاليشر فتكف عن الكلام]

كاليشر : [يفتعل ابتسامة واسعة] آه.. هو أنت إذاً.. حقاً يا لغبائي كيف لم أنتبه للملاك الصغير ما اسمك؟

[زينب تتراجع]

ما اسمك هه؟

زينب : [بصوت راكد] زينب.

كاليشر : يا للاسم الـ.. [يلتفت إلى محمود] مثلنا تماماً أنتم..، حين تبحثون عن أسماء لأبنائكم تلجؤون إلى التاريخ [يضحك] لدي ولدان وبنت، أسميت الأول [بفخر] يوهي والثاني يهوذا [بنشوة] والصغيرة راحيل.. أعتقد أننا سنلتقي كثيراً منذ الآن.. نحن جيران، وسيكون لدينا وقت طويل. سنحكي أشياء كثيرة [لزينب].، أنا أعرف الكثير من الحكايات وسأعطيك ما تريدين من الحلوى. ما رأيك؟ [صمت] ما بك لا تجيبين؟ ألا تحبين الحكايات والحلوى!؟ [تقترب زينب خطوة أخرى من خالها كأنها

تستنجد به] يجب أن أذهب الآن.. نهاركم.. سعيد [يقهقه] نهاركم سعيد...

[يخرج]

[يعود محمود لطرق وتسوية نير المحراث فيما تقف زينب ساهمة]

زينب : [تقترب قليلاً] خالي. من هؤلاء؟

محمود : [دون أن يتوقف عن العمل] عابرون.

زينب : [صوتها يرتعش] أتعرفهم؟

محمود : أجل.

زينب : أسقطوا الأشجار. [صمت].. يبنون مكانها سوراً [صمت ثم تتمتم بانكسار].. شجرة الصنوبر التي نصبتَ عليها أرجوحتي، رأيتها ملقاة على طرف الطريق.. [بهمس] ميتة..

[تخطو زينب بانكسار باتجاه الدرج فيما تعلو أصوات عبرية من الكيبوتس]

زينب : [تصعد الدرجات ببطء، وقبل أن تختفي عن الأنظار تلتفت نحو محمود] خالي.

محمود : [بصوت راكد يأتي من خلال الطرقات على المحراث] نعم.

زينب : هل سيبقون هنا..؟

محمود : [يتوقف عن العمل للحظات] كلا يا ابنتي.... إنهم عابرون.. عابرون.

[تغيب زينب . يواصل محمود الطرق على النير، اطفاء تدريجي ويسمع وقع ضربات فأس في الحديقة مع همة نفس ثقيل... ظلال رجل أعرج تحوم حول المنزل وعلى الحيطان وتتداخل ضربات الفأس مع وقع قدمين واحدة ثابتة والثانية مكتومة... صوت ابن آوى أقرب مما كان عليه في المشهد السابق].

المشهد الثالث

"كاليشر"

[مساء اليوم التالي صوت ابن آوى، محمود مستغرق في عمله. زينب جاثمة على الأرض تكتب وتستظهر ما تكتبه بصوت مرتفع].

زينب : زرع فعل ماض مبني على الفتح الظاهر.. الفلاح.. فاعل [لمحمود دون أن ترفع رأسها] خالي أتعرف في الإعراب؟

محمود : [بعد برهة].. ذلك كان منذ وقت بعيد.

[تتابع زينب الكتابة والقراءة، وتتابع طرقات محمود]

زينب : جارتنا أم خالد تقول إنه توجد مدرسة في بلدة قريبة من هنا.. مدرسة حقيقية، صفوف، وكتب مجلدة، ويعطون التلاميذ دفاتر ملونة [بعد صمت].. خالي هل ستأخذني إليها العام القادم؟

محمود : ربما آخذك.. إن تفوقت في دروسك هنا.

[تهز زينب رأسها ثم تعود إلى الكتابة والقراءة ويتداخل صوتها مع إيقاع ضربات محمود ومبرده على النير ويصبح الصوت عميقاً وخافتاً..

يظهر كاليشير فجأة في بقعة ضوء نازلاً الدرجات الخشبية بهدوء وقد انتشرت ظلاله على الجدران.. إنه يبتسم وقد أصبح خلفهما]

كاليشر : [يصرخ فجأة].. أنا هنا أيها الجيران الطيبون [تجفل زينب وتقترب من خالها]..

أرجو ألا أكون قد أفزعتكم.. [يتفحصهما].. يبدو أنني أزعجتكم حقاً.. كنت أتجول في الخارج ودخلت دون أن أعرف أنني سأصل إلى هنا.. لم تخبرني أن للبيت باباً خلفياً.. أوه أرى أنكم تنعمون بدفء هنا!... الطقس في البرية مرعب الليلة. البرد

قارس والظلام شديد تعثرت مرتين وكدت أسقط في حفرة في الحديقة.

[ينحني ويلتقط دفتر زينب]

ها.. خط جميل حقاً!.. [يضحك ويحك رأسه بظاهر يده] رغم أنني لا أعرف قراءة العربية [لزينب لك هذا ها؟ ماذا كنت تكتبين.. لا.. دعيني أحدس أولاً.. إنه ليس حساباً. ربما علوم؟ أو جغرافيا أو [يضحك] آه كم كنت أكره دروس الجغرافيا في صغري.. لم أكن أحب الكلمات التي تتحدث عن البحار والأنهار والجبال.

كنت أتخيل الكتاب طرقات وصخوراً وحجارة ومدناً وقرى قبيحة.. حتى الكيبوتسيم* [يضحك] وإن كنت قد عرفتها لاحقاً.. [لزينب] هل تخيلت أنت مثلي؟

[زينب لا تجيب وتنظر إليه]

كاليشر : لم تتخيلي؟

زينب : [بعد صمت] لم أتخيل الكيبوتسيم.

[صوت ابن آوى]

كاليشر : [يقف فجأة وبأسلوب قريب من الخطابة].. يجب أن أعترف.. حقاً.. لقد بدأت أحبكم.. أنتم تشكلون عائلة صغيرة ورائعة [محمود يعاود الطرق على النير) لكنكم.. لكنكم.. تشعرون بالوحدة [يلتفت] ألا تشعرون بذلك؟.. إن عائلة تشعر بالوحدة تحتاج فقط إلى كاليشر نيمروفسكي [يضحك].. كل شيء بعد ذلك سيصبح على ما يرام.. على ما يرام.

[يهز رأسه موافقاً وقد أصبح فوق رأس محمود]

إنه عمل حقيقي.. أنت تعمل منذ الأمس [صمت].. أنت لا تخرج كثيراً.. عملك يسرق كل وقتك. [يهز رأسه موافقاً] أنا لم يتسع لي الوقت لأمارس عملاً محدداً سوى منذ فترة وجيزة [صمت] لن أدعي أن خدمتي في جيش الدفاع ستعتبر عملاً

---

* جمع كيبوتس بالعبرية.

[صمت].. وكما ترى الآن، ها أنا قد أصبحت أشبهك.. أقصد أنني أقوم في الكيبوتزات بأعمال شبه يدوية منذ أن سرحت من الخدمة..
[زينب عادت إلى دفاترها.. صوت طرقات محمود أكثر خفوتاً]
.. لم أعد جندياً.. أجل [بسخرية حزينة] لقد فقدت هذه الصلاحية منذ أعوام [يشير إلى قدمه] بور سعيد جعلت مني رجلاً معطوباً..
[طرقات محمود تتواصل بلا مبالاة.. وفي هذه اللحظات يرى كاليشر السيف المعلق على الحائط فيطلق صيحة دهشة]
السيف! . السيف!! [يقترب منه ويتلمسه].. قلما رأيت منزلاً عربياً يخلو من هذا.. العرب قوم محاربون. نادراً ما يختفي السيف من تاريخهم..
[يلتفت باتجاه محمود] تعرفون كيف تصورون الماضي ليصبح قطعة من الجدار.. حقاً.. هذا ممتع.. [يجيل نظره في الجدران] ماذا لدينا أيضاً [يرى اليرغول] ها . ! ها قطعة حربية أخرى.
[ينزع اليرغول عن الجدار ويمده أمام ناظريه]

زينب : [تلتفت إليه] هذا يرغول.

كاليشر : آ..؟

زينب : [وهي تعود إلى كتبها] يعزف.

كاليشر : يعزف! [يضحك] أنا اعتقدته سلاحاً محشواً بالرصاص [يضحك] حين رأيته معلقاً إلى جانب السيف... [يقلب اليرغول بين يديه] أحقاً تستطيع هذه القصبة أن تغني؟!
[ينفخ فيها فلا تصدر صوتاً ويلتفت نحو محمود]
.. بالأمس مر راعٍ من جانب الكيبوتس أعتقد أنه كان ينفخ في قصبة كهذه. كان ذلك حزيناً حقاً.. مازلت أتساءل.. لمَ تحزنون في غنائكم؟.. هه! لمَ تحزنون؟!
[رعد سحيق.. طرقات محمود على النير، والصمت أصبح معبراً

حين يتداخل بصوت ابن آوى البعيد.. يشتد هطول المطر في الخارج]

كاليشر : [وكأنه يحدث نفسه] المطر يهطل بغزارة..
اعتقدت أننا لن نقابل شتاء قاسياً في بيت صفافا.. ومع ذلك، فإن الأشياء هنا أقل قسوة.. في بولندا، حيث أمضيت طفولتي، الشتاء هناك مرعب.. هناك يلزم الإنسان قوة حواسه جميعها ليشرق عليه يوم جديد، ولكن هنا.. ماذا أقول؟.. كم أتمنى الآن لو أنني ولدت هنا وليس في مدينة "كراكوف"* [صمت] آه.. هذه البلاد ساحرة، واسعة، غنية..
سجلت في دفتر مذكراتي لحظة وصولي إلى مرفأ "أشدود".. لا أستطيع أن أصف الآن.. كان شيئاً.. شيئاً كأنه من التاريخ.. آه.. [بشكل مباغت].. لم أتوقع أن أجد أحداً هنا.. أعني أثناء الرحلة لازمني شعور بأن هذه البلاد خاوية...
كنا ستمائة مسافر. ورحت أجيل ناظري في الساحل العاري وقلبي يخفق...
[ينادي] : «أنت أيها الزرافة الحمقاء! ، أسرع، لست في رحلة سياحية".
[يضحك] رجال الهاغانا علمونا السرعة.. الكل يقول لك هنا أسرع.. لكنهم كانوا على حق.. فبعد ساعة واحدة قتل خمسة منا في كمين عربي..

[الطرقات معبّرة على نير المحراث]

.. أوه.. لم أكن أود أن أفسد هذه الأمسية الرائعة بالحديث عن الحرب.. فقط أردت أن أقول كم أحببت هذه البلاد، وهذه القرية [يضحك].. إحدى الفتيات اللواتي معنا هنا كانت منتشية لأنها أخيراً ستذهب إلى قرية اسمها بيت زهافا.. "زهافا" هو اسم الفتاة [يضحك] لقد أخبرتها ونحن في الطريق إلى هنا أننا ذاهبون إلى بيت صفافا وليس بيت زهافا. ومع ذلك - قلت لها،

* مدينة في بولندا تكثر فيها التجمعات اليهودية.

تستطيعين أن تعتبريها بيتك. فالسكان هناك أناس طيبون ومضيافون بحيث يشعر المرء وكأنه في بيته..

[طرقات محمود على خشب المحراث.. الطبيعة غاضبة في الخارج]

كاليشر : [بعد صمت].. كأنه في بيته.. مريح هنا الصمت.. آ.. حقاً. لابد أن يكون مريحاً.. [يحاول أن يوحي بأنه يقصد المزاح، لكن ثقل الصمت يزعجه في الحقيقة.. صوت المطرقة أكثر وضوحاً.. يتردد كاليشر ثم يخاطب محمود فجأة]

ألا يمكنك أن تتوقف قليلاً.. ؟.. أقصد، إذا كان على المرء أن يداوم على عمل ما لفترة طويلة فليستعن بالثرثرة خلال العمل.. الثرثرة تقلل من الإحساس.. الإحساس بالجهد طبعاً [يسير حتى يصبح وراء محمود تماماً] ماذا تصنع حقاً [ينظر].. آ..! إن هذا ليستحق كل هذا الجهد!

[يمعن النظر بالمحراث باهتمام، ويبدو وكأنه اكتشف شيئاً]

العقال.. ! العقال الذي كاد أن يقتل الكولونيل!

[يضحك ثم يمرر يده بحذر وبطء على خشب المحراث] هذه المحاريث تصبح آلات جارحة بعد إتمام صنعها..

في أيام خدمتي العسكرية كنت في يافا أطارد بعض المشبوهين. وطلبت من عربي كان يقف أمام منزله أن يدلنا على بيت أحدهم :"انتظروا حتى أحضر عقالي".. بعد دقيقة، انفتح الباب فجأة وظهر مثل هذا [يشير إلى المحراث] كاد هذا الرأس أن يهوي بسنه المعدني على دماغ الجندي "ليفي" الذي كنا نلقبه بالكولونيل [يضحك] لم يبقَ في الكتيبة بعد ذلك من لم يسمع عن العقال العربي الذي كاد أن يقتل الكولونيل..

[يستمر في ضحكه لكن ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً.. عواء ابن آوى يبتلع الصمت].

كاليشر : [يفتح النافذة ويهمس].. لم يتغير صمت بيت صفافا.. لم يتغير

منذ سبعة عشر عاماً.. [يغلق النافذة فجأة كأن وحشاً حاول الدخول منها].. يجب أن نقهر هذا الصمت [يحاول أن يبتسم].. يجب.. يجب ذلك.

[يجر قدمه ويسير ببطء نحو الباب ثم يفتحه ويخرج.. صدى وقع قدميه خارج المنزل يسمع بإيقاعات متفاوتة فهناك قدم ضعيفة وأخرى قوية. الإضاءة تخفت، وهناك ظلال آدمية تحوم حول المنزل... المطر شديد الهطول، ويعوي ابن آوى في البراري المجاورة فيبدو صوته جلياً وكئيباً].

زينب : [تسرع لتتكور قرب محمود] خالي. أنا خائفة.

محمود : [يضمها إليه] تعالي.. لاتخافي.. ليس هناك ما يخيف.

زينب : أشعر بالبرد.

محمود : [يلفها إلى جانبه بدثاره الصوفي] هه.. هكذا أفضل. أليس كذلك.

زينب : آه. خالي أنت دافئ كثيراً.

محمود : ذلك لأن طفلتي الشقية زينب تجلس إلى جانبي... هل أنجزت فروضك المدرسية؟

زينب : كلها.. خالي، أكمل لي الحكاية.

محمود : أية حكاية؟.. [يتذكر] الحكاية.. آه. أجل كدت أنسى.. أخبريني أين وصلنا؟

زينب : وصلنا إلى الملك وهو يدخل الغابة ليطرد الساحرة.

محمود : بل وصلنا إلى أبعد من ذلك، وأنت لا تذكرين لأنك نمت في المرة السابقة.

زينب : لن أنام هذه المرة.

محمود : [يبتسم ويضمها] حسناً.. بعد أن هربت الساحرة رجع الملك إلى مملكته فوجد شعبه وقد خرج لاستقباله محتفلاً بزوال الشؤم وانتهاء أمر الساحرة. فأقيمت الأفراح سبع ليالٍ وعاد الأمن والهدوء إلى المملكة... وقد طلعت الزهور من جديد وتفجرت

المياه في الينابيع الجافة واستعادت العصافير غناءها ومرحها.

زينب : وأين كان "ضوء القمر" و "ريش الطيور"؟

محمود : كانا في قصر والدهما الملك.

.. ومضت أشهر.. وفي يوم من الأيام، وبينما كان "ضوء القمر" و "ريش الطيور" يلعبان في حديقة القصر، وإذا بهما يسمعان صوت شخص ما يئن من الألم. وأطلا من بوابة القصر، فرأيا امرأة مسكينة عجوزاً وقد وقعت على الأرض وراحت تنادي طالبة المساعدة.

كان "ضوء القمر" و "ريش الطيور" طفلين طيبين وعطوفين. وقد رق قلباهما لحالة المرأة العجوز فخالفا أوامر والديهما وتسللا من سور الحديقة وذهبا إلى العجوز لمساعدتها..

قالت العجوز : أيها الطفلان الطيبان، أنا عجوز مريضة ولا أستطيع العودة إلى منزلي.. هلاّ ساعدتماني لأصل إلى بيتي.

قالت "ريش الطيور" : سنرفعك عن الأرض ولكننا لا نستطيع أن نوصلك إلى بيتك فأبونا الملك سيغضب لو علم أننا ذهبنا دون إذنه. انتظري هنا حتى نستأذنه أو نحضر عدداً من الفرسان ليساعدوك.

أنّت العجوز وقالت : لاداعي أن تخبرا أحداً... بيتي قريب من هنا.. فقط عدة خطوات. ساعداني أيها الطفلان العطوفان وسأكون لكما من الشاكرين.

تردد "ضوء القمر" و "ريش الطيور" ولكنهما في النهاية استجابا لطلب العجوز وسارا معها واتكأت عليهما في الطريق إلى بيتها.

زينب : وأوصلاها؟

محمود : لم تكن المسافة قصيرة كما قالت العجوز وكانا كلما قالا لها "هل وصلنا" تقول لهم "سنصل بعد قليل.. فقط عدة خطوات أخرى".. وحدث شيء لم يكونا يتوقعانه!

[عواء ابن آوى.. وصوت هطول المطر في الخارج]

زينب : ماذا ؟

محمود : لاحظت "ريش الطيور" أن قدمي العجوز تكبران قليلاً قليلاً. وراحت يداها تكبران أيضاً وظهرت لهما أظلاف، واستطالت من فمها نواجذ وأخذت عيناها تقدحان شرراً.

زينب : الساحرة!!

محمود : فجأة جذبت "ريش الطيور" يد أخيها وهي تصرخ : "الساحرة.. الساحرة"

ثم انطلقا يركضان بكل قوتهما. والساحرة تركض خلفهما وتركض وتركض إلى أن أمسكت "بضوء القمر" وسحبته وهي تزمجر ثم ضربته بعصاها السحرية فحولته إلى ابن آوى.

[ذاهلة وحزينة] ابن آوى!

[إظلام تدريجي، ويعلو عواء ابن آوى قادماً من البراري أقرب مما كان عليه في المشهد السابق.

- ظلال كاليشر حول المنزل، ثم ينبثق صوت ضربات فأس في الحديقة مع همة نفس ثقيل تتعالى ببطء.. ويشتد هطول المطر]

المشهد الرابع

"صمت"

[وقع ضربات الفأس في الفناء الخلفي للمنزل تتلاشى تدريجياً مع انبلاج الضوء.. صباح هادئ والمطر قد توقف.
في الكوة العلوية وفي جنبات سقف المنزل، تنبلج خيوط الفجر الأولى. زرقاء تميل إلى لون الفضة.. بعض الأركان تغرق في ظلمة هادئة وثابتة.
يئن الباب أنيناً طويلاً ويسمع صوت ريح هادئة.. يطوف في المكان صوت محمود يرنم غناءً شعبياً فلسطينياً.. صوته عميق وشجي].

صوت محمود : «بنص الليل، نجم اسهيل أسرى
ليزرع في القلب حسرة عاحسره
يا غائبين ارجعوا على الباب مره
شمس العمر مالت عالغياب....

[بهدوء تتراجع العتمة ليحل وضوح الفجر الرمادي. يظهر محمود. يقف في الجانب الأيسر وفي عمق الردهة مولياً ظهره ويقوم بخلع معطفه القصير. يستدير ويجلس على الدرجة الأخيرة من الدرج الخشبي ويبدأ بخلع الجزمة الطويلة الساق التي ينتعلها وتظهر عليها آثار طين ووحل]

محمود : [من خلال أسنانه]... لن يكون ذلك سهلاً.. وقت طويل مضى [ينهض]... لاشيء.. [يشعل المدفأة] لم تعتد أركان البيت على هذا البرد...
[يتناول ابريق القهوة العربية ويسكب لنفسه فنجاناً ويشربه]... آه... [يجلس قبالة أدواته ويمسك بمنشار وحين يهم أن يبدأ العمل

يكتشف وجود كاليشر قابعاً قريباً منه في أحد أركان البيت].

كاليشر : [بابتسامة جرداء] فاجأتك؟

[محمود لايجيب ويبدأ عمله]

كاليشر : [يتقدم دون انتظار اجابة] حسناً [يصدر نفساً طويلاً] ها قد أصبح من الصعب عليَّ أن أستغني عن زيارة الصباح.. قهوة [يسكب لنفسه ملء الفنجان ويرتشفه على دفعتين] باردة قليلاً.. ما زال منزلكم معتماً.. لم ينبلج الفجر تماماً.. أتساءل كيف تستطيع العمل في مكان معتم؟

[الصمت فسيح وحركة المنشار متواصلة فوق خشب المحراث
كاليشر يتجول في أركان المنزل متحفزاً للكلام]

... ما الذي يجعلني أعشق هذا المنزل إلى هذا الحد؟... إنه ليس باهراً [يستدرك] عفواً، أقصد أن شكله ليس غريباً عليَّ فقد دخلت بيوتاً عربية كثيرة.. أنا مولع بالسكن في البيوت الريفية، لذلك فإنني أقيم في منزل ريفي في (مجدّو).. إنه كوخ رائع تحيطه حديقة خلابة.. ولكن.. علي أن أعترف أنني لا أشعر فيه بطمأنينة كافية رغم أنني أسكنه منذ حوالي عشرين عاماً.. كان خاوياً عندما دخلته لأول مرة قبل حوالي تسعة عشر عاماً.. بيت بسيط حولته بمرور الزمن إلى واحة رائعة.. مرعب ألا يجد المرء السكينة في منزله..

[لا جواب سوى الصمت وصوت حركة المنشار تارة والمطرقة تارة أخرى]

كاليشر : [يحاول أن يبدو كلامه طريفاً] كنت في الماضي إذا دخلت منزلاً عربياً ينتابني احساس بأن شخصاً ما يختفي في ركن مظلم سوف يظهر في أية لحظة ليصوب بندقية إلى صدري [يضحك] زوجتي "رايسا" المسكينة، كل مرة أغادر فيها بيتنا الريفي في "مجدّو" تراودها أحلام مزعجة.. تصور! إنها تراني في أحلامها مقتولاً بفأس عربي!

[الطرقات الحادة على النير]
كل مرة ترمي نفسها بين ذراعي وهي لاتكف عن ترديد ذلك [يتحدث كأن رايسا أمامه وهو يعانق الفراغ] يا رايسا، ذلك كان في الماضي.. الماضي يا عزيزتي [يلتفت لمحمود].. ترى ما الذي ستقوله زوجتي لو أنها رأتني الآن بينكم أيها الجار الطيب.. بين رجل وقور وطفلة رائعة يعيشان حياتهما بصمت.. في منزل مريح كهذا.. [يجلس ضاحكا وهو يهز رأسه] هو قلق الزوجات.. مخاوفهن الساذجة.. [صمت]
أنت لست متزوجاً كما يبدو؟ تلك الطفلة ليست ابنتك كما توقعت..
ما أعرفه أن العرب يزوجون أبناءهم مبكراً.. شيء طريف، أن تكون في سن الأربعين وتتخذ من أولادك أصدقاء..
[لمحمود] لو لم ألتق رايسا لكنت مثلك الآن فكثيراً ما رفضت فكرة الزواج حتى اقتحمت رايسا حياتي فبددت ذلك الجزء من حريتي.
[الطرقات على النير متباعدة وخافتة]
.. قد لاتصدق، عمري الآن خمسة وأربعون عاماً. ومع ذلك فأنا لا أكف عن تذكر حبي الأول أيام كنت في السابعة عشرة.. في ذلك الوقت كانت لوالدي رغبات غريبة [يضحك] تصور أنه كان يريد أن يزوجني "يهوديت" فقط لأنها ابنة عشيقته.. أمنية لم يستطع الزامي بتحقيقها.. مع أنني بعد ذلك قد وقعت في حب يهوديت [يضحك] أنت لا تعرف يهوديت [بتأمل] سجّانة العصافير.. [ينادي فجأة].. يا يهوديت، هيا انزلي لنذهب في نزهة إلى الغابة فالطقس رائع.
[يلتفت لمحمود] كان لها صوت امرأة صغيرة..
[ينادي مقلداً يهوديت هذه المرة] "هل احضرت لي عصفوراً"
[يضحك].. عش كامل من العصافير يا يهوديت.. عش كامل..

[المحمود] في مدينة كراكوف، هناك، لو أن أحداً سألك عن منزل أهل يهوديت، فما عليك إلا أن تصف بيتاً من طابقين على شرفته الأولى عدد من العصافير المربوطة بخيوط من أطرافها، وهي تتقافز بجهد، مترنحة فوق طبقة من الثلج.

[صوت المنشار كأنه رفرفات أجنحة]

كاليشر : [يحاول أن يبدو حزيناً فيما حركة المنشار عبر الخشب تصدر صوتاً متقطعاً] لا أعرف ماذا حلّ بيهوديت بعد انقضاء هذه السنين.. آخر مرة التقيت بها كانت قبل قدومي إلى هنا بعام واحد. كانت قد تغيرت قليلاً [يبتسم] لكنها كانت ما تزال تذكر العصافير التي طالما ربطتها من أرجلها على الشرفة.. آه.. يا للذكريات..!.. يا للذكريات! [صمت يتشابك مع طرقات ثابتة على نير المحراث مما يضفي شيئاً من التوتر على الجو العام]

.. تحب الصمت كثيراً!.. هذا لا يزعجني، فكما ترى أنا ثرثار ماهر.. ما أخشاه فقط، هو أن يصبح وجودي ثقيلاً [يجر قدمه المصابة ويتكئ على درابزين الدرج].

أوه.. كم مضى من الوقت حتى أمكننا أن نستشعر هذا الهدوء...

[بارتياح مشوب بالتوتر] الآن.. نحن هنا.. بعد كل هذا التعب وصلنا [صمت وصدى الطرقات].. إنها.. إنها راضية علينا.. لا يمكنني أن أفسر صمت هذه الأرض تفسيراً آخر.. لا يمكن بأية حال أن يكون صمتها غضباً..

[الطرقات على الخشب قاسية وواضحة]

يجب.. يجب أن تفهمنا [يضم قبضته] يجب أن تقول شيئاً..

[حركة أدوات محمود أكثر سطوعاً وحدّة.. كاليشر يجر قدمه بتباطؤ ويخرج.. وبعد قليل تظهر ظلاله من جديد حول المنزل، وتتلاشى الإضاءة تدريجياً..

عواء ابن آوى أقرب مما كان عليه في المشهد السابق]

المشهد الخامس

"الوشاح"

[مساءً يبدأ المشهد من الظلام في ردهة المنزل ذاتها. يشعل محمود النار في المدفأة فيزداد النور في المكان، فيما صمت عواء ابن آوى يتردد في البراري القريبة].

زينب : [تظهر في أعلى الدرجات الموصلة إلى الغرفة العلوية وتهبط وهي تردد كالحالمة] ضوء القمر.. ضوء القمر..

محمود : [يلتفت اليها] ماذا جرى لك !؟

زينب : ألا تسمع إنه "ضوء القمر"

[يسمع عواء ابن آوى]

محمود : ابن آوى..

زينب : [بحنان] الأمير الصغير]!

محمود : .. [يضحك ويضمها إلى صدره] ليس كل ابن آوى أميراً مسحوراً.

زينب : لكن "ضوء القمر" صار ابن آوى!

محمود : المسكين لم يتمكن من الهرب كما فعلت أخته "ريش الطيور" [يجلسان قرب المدفأة].. وقد بكت "ريش الطيور" كثيراً وهي ترى أخيها يتحول إلى حيوان يهيم في البراري.. نادت عليه ونادت ولكنه لم ينتبه اليها واختفى عن الأنظار وهو يطلق عواء حزيناً كأنه البكاء.

زينب : إلى أين ذهب؟

محمود : لم تستطع زينب أن تعرف ذلك، وقررت ألا تعود إلى القصر وحدها، فماذا ستقول لوالدها الملك حين يسألها عن أخيها "ضوء القمر".. وهكذا هامت "ريش الطيور" في الغابة ودموعها على

خديها، وكانت كلما سمعت عواء بنات آوى تركض جهة الصوت تنادي ولكن دون جدوى.. وظلت على هذه الحال إلى أن نال الجوع والتعب منها فسقطت مغشياً عليها.

زينب : [جزعة] ماتت!؟

محمود : لا لم تمت، فحين استيقظت وجدت نفسها في كوخ أحد الحطابين، وكان هذا الحطاب قد عثر عليها فأخذها إلى كوخه ومسح وجهها بماء الزهور كي تصحو ثم قدم لها الطعام فأكلت ولكنها بقيت صامتة.

حاول الحطاب أن يسألها عن أهلها وعن سبب وجودها وضياعها في الغابة فلم تتكلم، كان الحزن قد عقد لسانها.

فاحتار الحطاب بأمرها وحلَّ المساء فتركها تخلد إلى النوم، ونامت "ريش الطيور" نوماً عميقاً فقد كانت في غاية الإجهاد..

وفي المنام رأت امرأة يشع النور من وجهها.. تقدمت المرأة منها وهي تبتسم وقالت : لاتحزني يا "ريش الطيور".. إن كنت تريدين أن تخلصي أخاكِ من السحر فاصنعي له وشاحاً من ريش العصافير!؟

وشاح من ريش العصافير!؟

محمود : أجل . وقالت لها أيضاً : يجب أن تصنعي الوشاح في خمسة عشر يوماً فقط وحين يصير القمر بدراً اذهبي في الليل إلى النهر القريب وانتظري.. سيحضر أخوكِ ابن آوى ليشرب من النهر. وعليك عندئذ أن تقتربي منه بهدوء وترمي عليه الوشاح، فيذوب السحر ويعود أخوك كما كان.

وقبل أن تغيب المرأة الطيبة نظرت إلى "ريش الطيور" وقالت : انتبهي إلى أنك يجب أن تبقي صامتة مهما حدث يجب ألا تكلمي أحداً.. يجب أن تبقي صامتة مهما حدث، وإلا فإن أخاك "ضوء القمر" سيبقى ابن آوى إلى الأبد..

واستيقظت "ريش الطيور" وهي تتصبب عرقاً، لكنها نهضت

بسرعة وأسرعت إلى الغابة كي تبحث عن ريش العصافير لتصنع الوشاح.

[إظلام تدريجي... ظلال كاليشر حول البيت..
صوت ابن آوى أكثر قرباً]

المشهد السادس

"العاصفة"

[فجر اليوم التالي.. الردهة في منزل محمود مازالت تحتفظ ببعض ظلمة الليل الفائت. صوت ضربات فأس في الفناء الخلفي... صوت هطول المطر في الخارج - صوت طقطقة عن يسار الردهة، ثم يظهر كاليشر وهو يركب الحصان الخشبي الصغير ويهز به]

زينب : [تنزل الدرجات وتنشد أغنية قروية فيما تقوم باشعال النار في المدفأة] :

اسمعوا الحكاية عن بنات الريف
عن حلوة ريحانة وأسمر ظريف
لـمّا الشمس طلعت وبان النهار
أسقطت خاتمها في جرة فخار

.. اسمعوا الحكاية عن بنات الريف... عن.. [تفاجأ بوجود كاليشر]

كاليشر : أكملي.. أكملي لمَ توقفت!؟
[زينب تتراجع قليلاً ولا تجيب]
هذا الحصان رائع.. هل هو لك؟ تعالي اركبي معي ولنلعب معاً.. [يضحك].. أتخافين مني!؟.. [باستهجان] لا !! كاليشر نيمروفسكي ليس مخيفاً إلى هذا الحد!.. أين الرجل [يشير بيده إلى فمه] الصامت؟

زينب : [بصوت مرتجف] خالي في الحديقة.
[تتعالى ضربات الفأس في الحديقة]

كاليشر : [باستهجان] تحت هذا الطقس؟!

[يتجول في الردهة وهو يدندن لحناً ما. وخلال ذلك تتحرك زينب خلسة نحو الباب الخلفي]

كاليشر : إلى أين؟

زينب : [تتوقف ولا تجيب]

كاليشر : ألن تبقي لنلعب معاً..هه؟

زينب : علي أن أكتب درساً.

كاليشر : ولماذا تكتبين؟ احفظي.. أنا عندما كنت جندياً كنت أحفظ رقمي العسكري وعدد الجنود، وعدد سيارات الكتيبة وتواريخ...

زينب : [ببراءة] لست جندياً.

كاليشر : تعالي.. حسناً تعالي.. لي حديث معك.

زينب : لا سأذهب عند خالي.

كاليشر : تعالي لا تخافي... هيا، هيا، سنلعب معاً.

زينب : لا أريد [صوت الريح يتناوب في الخارج]

كاليشر : بل تريدين.. ماذا دهاك.. لست مخيفاً.. لي أولاد في مثل سنك.. لا تخافي.

[زينب لا تقترب]

أوه، لا، توقعت أن تعتادي علي بسرعة.. اقتربي، اقتربي. [يضحك] سترين ان كاليشر.. أنا، شخص مسلٍ جداً.. أنا مرح دائماً.. هكذا كانوا يقولون عني أيام خدمتي العسكرية : "يا كاليشر أنت طفل كبير"..

[يغني العبارة السابقة وهو يتناول حبلاً قرب المدفأة ويأخذ بالقفز فوقه بطريقة الأطفال ثم يقذفه في الهواء ويتجه إلى الحصان الخشبي].

كاليشر : [بأسلوب احتفالي] الحصان بانتظارنا.. [يركب بطريقة رعاة البقر] هيا تعالي واركبي ورائي.. سوف نطوف العالم [يقهقه وزينب لاتغادر مكانها].. أسرع أيها الحصان.. إلى آخر الدنيا [يهز الحصان] لنصرخ.. لنصرخ أثناء الهجوم حتى نطرد الخوف..

[يصرخ].. ووو [يغني بإيقاع أوروبي] :
بعد الحرب...
لم تنتظرني ابنة الحاخام
"شي أني مابا كيش أوتا"*
[يضحك] تلك أغنيتي المفضلة..
[زينب صامتة ووجلة ومتشبثة بدرابزين الدرج، والضربات في الخارج أكثر علوا].

كاليشر : [يلتفت إليها] هيه ألم تعجبك اللعبة؟!.. حسناً لنجرب شيئاً آخر... عندما كنت جندياً [بلذةَ] آه، عندما كنت جندياً تعلمت الكثير من الألعاب... يا لله!
[وقع الفأس في الحديقة جلي]
الكثير، الكثير، [يصرخ فجأة] اختفـ...ـاء..
[يرتمي خلف الحصان الخشبي - وقع ضربات الفأس أقوى]
هيه.. [يهمس ويرفع رأسه ببطء] الآن.... سيظهر العدو.
[وقع ضربات الفأس في الحديقة يتصاعد ويتكثف... منبثقاً من صوت الريح والمطر]

كاليشر : [يشير] من هناك... من هناك... ننبطح أرضاً [يردد] ننبطح أرضاً.
[زينب تصعد الدرج رجوعاً... تريد أن تهرب]
نزحف.. نزحف [بصوت أعلى] نزحف [ينبطح] نزحف
[يزحف ويغني بصوت خافت ثم يعلو صوته محموماً ومنفعلاً] :
بعد الحرب...
لم تنتظرني ابنة الحاخام
بعد الحرب... كان لها طفلان
"بت هارابي لوتشي أرت ياما كوم"**
"شي أني مابا كيش أوتا"
لم تنتظر لأنها تريد بيت

* بالعبرية (هي لم تنتظرني).
** ذات المقطع الأول بالعبرية.

"ها بت حاخام"*
يوم الحرب
أنا ذهبت كي أهديك كل بيوت الشام

[صوت الريح وضربات الفأس - يركض للوسط]
العدو، العدو تحت مرمى النيران، "لفتاح إت هاإيش"**
[يصرخ] أطلق النار... نار... نار... بو. بف.. بو.. بو بف
[يقف ويضحك]
رائع.. النصر شعور رائع.. [لزينب] هل أحببت ذلك.. ممتع هه؟.. قولي شيئاً..
[يحرك يده ويدور على قدمه المصابة]
لست مرحة مثل كاليشر [يضحك] لنجرب لعبة أخرى، أتذكر الآن واحدة ستعجبك.. مؤكد..
[يجمع عددا من المناديل ذات الألوان المختلفة على الطاولة والحائط وثالثاً معلقاً قرب السيف].. ولكن انزلي إلي.. هيا انزلي [يصعد على الدرجات ويشدها من يدها] حسناً.. سيكون ذلك عظيماً... الآن سنضع المناديل هناك... أجل هناك في السلة.. ها.. ها أنا أضعها.. أصفر منقط، أبيض، أحمر.. الآن سأقف أنا هنا.. [يقف بجانب سلة المناديل].. وأنت هناك.. ستغمضين عينيك
[يمد يده في السلة وزينب تنظر أمامها وتبدو منقادة]
وآخذ منديلاً من السلة، وأخفيه [يضع يده خلف ظهره] أجل هكذا...
[يلتفت] إحزري الآن أي منديل أخذت؟
[زينب لا تجيب وتبدو خائفة وعيناها على الدرج]
ستقولين الأحمر [بصوت خافت] هه.. ليس الأحمر [يخطو باتجاهها وتخطو زينب باتجاه الدرج.. ضربات الفأس، تعلو

* « يا ابنة الحاخام» بالعبرية.
** «افتح النار» بالعبرية.

قليلاً] ليس الأحمر.. [يحك رأسه بظاهر كفه] الأصفر؟ هه؟..
[يضحك] ليس الأصفر.
[تخطو زينب خطوة أخرى وراءً ويتقدم كاليشر جاراً قدمه نحوها بثبات]

كاليشر : [يهمس فيختلج في صوته فحيح مخيف] الابيض.. الابيض [يقهقه فجأة] هو الابيض..
[تتراجع زينب فجأة فتعثر بالدرجة الخشبية وتسقط، وسريعاً يصبح ظل كاليشر الثقيل فوقها ويفح صوته بهدوء].. دورك الآن.
[تمشي زينب كالنائمة يدفعها كاليشر ويرافق خطوها وقع ضربات الفأس في الحديقة وقد راحت ترتفع شيئاً فشيئاً كأنها ضربات قلب]
نعم.. أجل.. الآن سأستدير [يتحدث بجدية وكأنه نسي نفسه] خذي منديلاً، سأستدير الآن [يستدير. زينب وضعت يدها خلف ظهرها دون أن تأخذ منديلاً، وقد افزعتها الطريقة].
سأحزر الآن [ضربات الفأس خافتة ولكنها حية] هم م م م..
ببساطة أنت تخفين المنديل.. الأصفر المنقط.
[ترجع زينب خطوة باتجاه الدرج الخشبي وكاليشر يتقدم ببطء نحوها]
ها.. ليس الاصفر؟.. إذاً لابد أن يكون.. الاحمر.. الاحمر..
كلمة أخيرة..
[ترجع زينب خطوة باتجاه الدرج الخشبي بينما ضربات الفأس في الحديقة تتصاعد مع بدء صوت ريح قوية]
[يجر قدمه ويحك رأسه بظاهر كفه] ليس الاحمر أيضاً.. ماذا جرى لي... أوف، الابيض إذاً، لم يبق غيره كان علي أن أتوقع..
أين ذهبت قوة حدس آل نيمروفسكي؟ [يلتفت لزينب] ماذا تنتظرين؟ [يدها مازالت خلف ظهرها] هيه، انتهت اللعبة..

خسرت [يجلس] واحدة بواحدة
[ضربات الفأس في الحديقة تتصاعد]
هيا اظهري يدك ولنبدأ من جديد.
[يقوم لكنه ينتبه إلى أن زينب ماتزال تضع يدها خلف ظهرها
.. تتعاظم ضربات الفأس في الحديقة]
.. لمَ تقفين هكذا ؟ [يتقدم وترجع زينب للوراء] .. هل هناك خطأ ما ؟
[يتقدم وترجع زينب وضربات الفأس في الحديقة تشتد متداخلة مع هبوب الريح]
أنت تخفين شيئاً آخر ؟.. ماذا تخفين؟ [بتوجس ظاهر] ليس منديلاً ؟..
[يتوتر وجه كاليشر ويظهر ذلك على حركاته الأخرى]
ماذا دهاك.. هيا اكشفي يدك، إنها لعبة لا أكثر.. [تتراجع، ويتقدم كاليشر] لا ، انت هكذا تخرجين عن قواعد اللعبة..
ضربات الفأس قوية.. كاليشر يتقدم والعرج في قدمه يبدو أكثر وضوحاً عندما يتوتر].
[هامساً] ماذا في يدك [يقترب] لا تخافي اكشفيها بسرعة..
[بتوتر] قلت ماذا، في يدك؟..
(تصعد زينب الدرجة الأولى من الدرج الخشبي]
.. ايتها الطفلة الرائعة [يصطنع ابتسامة] أنت لاتريدين أن تخفي عني شيئاً.. هه؟
[يقترب وترجع زينب لتصعد درجة ثانية فيما تتعالى الضربات في الحديقة أكثر فأكثر]
حقاً أنت فتاة مثيرة للاهتمام.. آه قلت منذ أن رأيتك هذه بنت شاطرة
[تتغير ملامحه فجأة وينحني ليواجهها]
ماذا تخفين في يدك؟.. لاتخافي.. قولي فقط..

[تسيطر ضربات الفأس على المكان، فجأة يصرخ كاليشر وينتزع زينب من وقفتها فتدور دورتين وتسقط عن الدرج إلى الأرض وتبدو كلتا يديها على الأرض مازالتا مضمومتين... فيهرع إليها كاليشر بحركة هستيرية ويحاول فتح كفيها، وحين لا يجد شيئاً يتنفس بعمق ثم يضحك فجأة ضحكة بلهاء...
الريح أصبحت عاصفة في الخارج وأركان البيت تهتز قليلاً.. في ذات اللحظة يدخل محمود ويقف بالباب حاملاً فأساً، يظل الباب مفتوحاً تدخل منه العاصفة، وهبات من مطر].

كاليشر : [يفتعل ضحكاً مكتوماً].. الصغيرة مرحة للغاية.. كنا نلعب...
[تتلاشى ابتسامته ليحل محلها التجهم والتوتر من جديد ويشير كاليشر إلى محمود] :
تحمل الفأس كبندقية !
[العاصفة تدخل بقوة وتحتل المكان تماماً]

كاليشر : [بخوف] العاصفة!
[محمود يفتح النافذة القريبة فجأة]

كاليشر : ما الذي تفعله بحق السماء؟!!
[محمود يمشي بصمت وثبات نحو النافذة الأخرى]

كاليشر : الريح ! احتلت البيت بأكمله!
[محمود يصل إلى النافذة الثانية ويفتحها بعنف]

كاليشر : كل شيء يوشك أن ينقلب ! اللعنة.. ستقتلعنا..!

[يتجه محمود نحو زينب فيرفعها عن الأرض ويحتضنها ثم يأخذها إلى ركنٍ قصيٍّ مظلم من أركان البهو حيث يجلسان صامتين...
العاصفة تستمر مندفعة من النوافذ والباب، ولكنها تأخذ بالتراجع شيئاً فشيئاً..
كاليشر خلال ذلك كان متشبثاً بأحد الجدران كأنه يخشى السقوط

- تهدأ العاصفة، فيركض كاليشر ليغلق النوافذ جميعها ثم يتجه نحو الباب ويغلقه بقوة ويقف هناك].

كاليشر : العاصفة المجنونة كأنها غضب.. [صمت طويل] آه الآن يعود الصمت.. الصمت.. أسمع صوته.. إنه عزلة حقيقية!
..لايضيرني أبداً.. لا يضيرني أن أتكلم وحدي.. آه.. أجل ليس الأمر سيئاً.. ليس سيئاً [يرفع صوته قليلاً] أما زلتم هنا ؟!..
أعني هل تسمعون؟!! [صمت طويل]
ثمة صوت للصمت.. ها أنا الآن أسمعه.. لأول مرة.. حياً وحقيقياً.. إنه يذكرني بالحكايات القديمة.. [عيناه تسهمان فيهمس] صوت ينادي في الليل.. [يلتفت إلى حيث يجلس محمود وزينب] تعرفون قصة نداهة النيل.. هه..!؟... مؤكد أنكم تعرفونها...
أحد أصدقائي الذين هاجروا من مصر إلى هنا.. حدثني عن ذلك الصوت الحزين الذي يشق الصمت في الليل منادياً ولا أحد يصغي إليه... النداهة!!
الحكاية المصرية تقول إن نداءً مستغيثاً وباكياً يخرج من حينٍ لآخر من عتمة النيل صوت أنثوي دافئ يظل يستغيث ويستغيث...
نداهة النيل كما تقول الحكاية تأسر قلب من يسمعها فيمضي هائماً نحو الصوت حالماً بحورية ماء..
[صمت] أما الجزء الأخير من الحكاية فليس ممتعاً [صمت].. يغرق.. الذي يلبي النداء يغرق وتبتلعه اللجج إلى القاع... كنت دائماً أحب أن تتوقف الحكاية قبل نهايتها [صمت]...
لم أستطع أن أكره النداهة... أنا أتفهم عذابها [صمت]...
ألا يمكن أن تكون المرأة المستغيثة صادقة وطيبة؟!...
[يخطو نحو الخارج ولكنه يستدير قبل أن يغادر]
ماذا نفعل!؟... الحكاية لا تريد ذلك...
[يخرج... إظلام تدريجي... ظلال كاليشر على الجدران... عواء

ابن آوى يصعد من البراري القريبة... وبعد قليل تسمع ضربات فأس في الحديقة مع همة نفس ثقيل... عواء ابن آوى مرة أخرى أكثر وضوحاً مما كان عليه في المشهد السابق]

المشهد السابع

"ريش الطيور"

[صوت ضربات فأس في الفناء الخلفي - ردهة منزل محمود في ليل اليوم نفسه... محمود يدخل حاملاً السراج قادماً من الحديقة وخلفه زينب تحمل المعول ويظهر ثقيلاً بين يديها].

زينب : يعني.. مثل الغولة والساحرة؟

محمود : [يضع السراج على درابزين الدرج] يعني... لكنها مجرد حكايات.

زينب : الغولة... حكاية؟

محمود : أجل.

زينب : يعني، ليست موجودة؟

محمود : [وهو يشعل المدفأة].. ليست موجودة

زينب : لكنها تنادي في الليل.. [محمود يتشاغل ولايجيب] مثل امرأة النيل.. [تقلدها] يا زينب... يا زينب.. تعالي.. [تجلس مقابل محمود وتواجهه وتهمس] أنا سمعتها.

محمود : [وهو يحضر أدوات العمل - بتعجب مصطنع]... حقاً.. ماذا قالت لك؟

زينب : قالت.. أنا مسكينة.. ساعديني [صوت الريح ومطرقة محمود].. خالي هل تتغير الحكايات؟

محمود : كيف؟

زينب : الغولة... هل تصبح امرأة طيبة؟

محمود : ذلك لايحدث عادةً.

زينب : ولكنها حكاية!

محمود : صحيح.. لكن الناس الذين حكوها تعبوا كثيراً.

زينب : كيف؟
محمود : فيها معاني حياتهم..
زينب : لا أفهم؟
محمود : ستفهمين.. ناوليني قطعة من الحطب.. من هناك.
زينب : [تناوله] خالي، هل تخرج النداهة وتنادي الناس في الليل فقط؟
محمود : يقولون ذلك.
زينب و "ريش الطيور"؟
محمود : ... من؟
زينب : أميرة الحكاية. هل جاءتها الساحرة في الليل؟
محمود : [انتهى من اشعال النار وجلس ملتفاً بفراء مما يستخدمه الرعاة]
كانت الساحرة ماتزال تبحث عن "ريش الطيور" لتسحرها مثل أخيها "ضوء القمر" ولم تكن قد عرفت مكانها بعد.. "أتذكرين أين كانت ريش الطيور"؟
زينب : في بيت الحطاب وقد جاءتها امرأة طيبة في الحلم وقالت لها. [تتذكر] لا تقل سأتذكر.. قالت لها إن أخاكِ سيبقى مسحوراً إن لم تصنعي له وشاحاً من ريش العصافير قبل أن يصبح القمر بدراً..
محمود : وفي اليوم التالي توجهت "ريش الطيور" إلى الغابة وراحت تجمع بعض رياش العصافير ثم عادت إلى المنزل وبدأت العمل..
زينب : ويجب أن لا تكلم أحداً حتى لا يبطل عملها.
محمود : صحيح.. وهذا ما حصل. ولكن لم يكن في الغابة ريش كثير يكفي لصنع الوشاح.. ومضى يومان وكانت الأميرة الصغيرة تظل مستيقظة طوال الليل وهي تبكي لأنها لا تستطيع إتمام الوشاح.. ولكن حدثت مفاجأة.. ففي صباح اليوم الثالث استيقظت الأميرة من نومها وأطلت من باب الكوخ فكاد قلبها يطير من الفرح.
زينب : ماذا رأت؟
محمود : رأت ريشاً كثيراً جداً.. ريش عصافير ملون وجميل لم يسبق لها

أن رأت مثله!

زينب : من أين جاء الريش؟

محمود : حين سمعت العصافير بكاء "ريش الطيور" حزنت عليها وأرادت أن تساعدها ولذلك، وعند الفجر حطت أعداد كبيرة من العصافير عند باب كوخ الحطاب، فرمى كل عصفور ثلاث ريشات من ريشه الجميل هدية للأميرة ثم طار محلقاً.

.. ومضت الأيام "وريش الطيور" تعمل بجد وصمت وقد استغرب الحطاب أمرها كثيراً وتعجب أكثر حين كان يشاهد ريش العصافير الكثير أمام الكوخ، لكن الحطاب كان انساناً طيباً وقد ظن أن "ريش الطيور" فتاة خرساء لا أهل لها فأبقاها في كوخه وعطف عليها...

أما الأمير المسحور "ضوء القمر" فقد عرف مكان أخته وصار يجول في كل ليلة حول الكوخ.. وهو يطلق عواء حزيناً فتسمعه "ريش الطيور" وتبكي.. ثم تقوم من مكانها وتطل من نافذة الكوخ فتسمع غناء شجياً قادماً من الغابة لا يسمعه سواها!

[صوت عواء ابن آوى]

زينب : غناء؟!

محمود : صوت ابن آوى، الأمير المسحور.

زينب : ماذا كان يقول؟

محمود : كان يقول :

خبروا "ريش الطيور" أنني "ضوء القمر"
كنت في يوم أمير ضحكتي أحلى وتر
وأنا الآن ابن آوى تائه بين الوعر
في ظلام ومطر..

سحروني يا أخيّة
فاذرفي دمعاً عليّ..

حذروا ريش الطيور من كلامٍ وخطر...

[إظلام.. عـواء ابن آوى أكـثـر قـرباً مما كـان عليـه في المشـهـد السابق]

المشهد الثامن

" ظل على السور "

[منتصف تلك الليلة - بقعة ضوء على الغرفة العلوية حيث تنام زينب ويضطجع محمود بجانب سريرها ملتفاً بفراء رعاة أسود، ويبدو شبه نائم.. صوت ابن آوى في البرية يأتي بعيداً]

صوت : [يأتي من حيث سور فناء المنزل في زاوية المسرح اليسرى] : واحد.. اثنان.. [بجهد] واحد اثنان.. واحد.. هه.. هه.. هه.. اثنان.. واحد.. أجل.. نعم.. هكذا هبوط.. صعود.. صعود.. هبوط.. هه.. هه.

[يستيقظ محمود وينزل ويرفع نور السراج ويحمله ويمضي بحذر إلى حيث الصوت.. وحين يقترب من السور يرفع السراج إلى أعلى فيرى كاليشر يقف على السور وهو بالقميص الداخلي.. يقوم بحركات رياضية، وبالكاد يحافظ على توازنه].

كاليشر : [وهو يواصل حركاته الرياضية] عمت مساء أيها الجار.. كيبوتس غوديم نائم.. كما ترى أمارس رياضتي الليلية.. ها ها واحد.. اثنان.. رائع.. الرياضة شيء ممتع، خاصة في الأمسيات الحالمة.. لم أجد مكاناً أفضل من هذا.. مرتفع معرض للهواء، وحيوي.. أحب أن أمارس الرياضة في الأماكن الحيوية.. هيا، واحد.. اثنان.. هه.. اسمع، أتعرف لماذا يركض رياضيو الألعاب الأولمبية بالشعلة إلى أعلى.. أعلى.. أعلى.. هه؟... إلى مكان شاهق وعظيم.. [متابعاً حركاته].. هكذا، كما أفهم، لأن الرياضة شيء عظيم أيضاً وعليك أن تمارسها في مكان مرتفع... ان هذا لخير تعبير عن الاقدام على الحياة [يتابع] صعود.. هبوط.. صعود.. واحد.. أجل، ها [يقهقه].. اصعد واختبر

بنفسك.. ياللسعادة، إنك لتمارس شيئين في وقت واحد؛ تنمي عضلاتك أولاً، وتستنشق هواء الريف ثانياً، كأنك في نزهة على دراجة.. واحد اثنان.. هه.. أنا دائماً يمكنني أن أفعل أشياء كثيرة في وقت واحد.. والذي كان يقول عني هذا.. واحد.. اثنان.. صعود.. شيء غريب، غريب ورائع، أليس كذلك [يقهقه ويتابع] واحد اثنان. [من بين أسنانه] أيام الحرب الثانية كان عمي أهارون يعمل صائغاً في مدينة بولونية أسمها "لوبلين" كان يسكن في المدينة القديمة.. [يضحك] عمي أهارون كان زير نساء.. واحد.. اثنان.. هبوط.. صعود.. [يتابع السرد] جميع الذين عرفوه كانوا مستعدين أن يقسموا أن أياً من فتيات المدينة لم تفلت من يد أهارون نيمروفسكي.. ها.. أتدري.. في أحد الأيام كادت تلك البطولات الغرامية أن تصبح هباء.. أجل.. لابد من مأزق لتصبح الحياة أكثر إثارة.. واحد.. اثنان.. هه.. هه.. تصور، أهارون نيمروفسكي الرجل العنيد الضاحك، يتحول فجأة إلى رجل صموت، حزين وفي عينه نظرة هائمة.. واحد اثنان.. أجل.. وبسبب ماذا، بسبب فتاة!.. فتاة! [تصور] [يصرخ].. هل وقعت في الحب أخيراً يا نيمروفسكي! [يقهقه ويواصل حركاته الرياضية].. لم يكن حباً.. أنا أعرف عمي.. الأمر ببساطة أنه لم يكن قد جرب الفشل مع النساء.. لم يفشل [يتابع] واحد.. اثنان.. ولذلك أصبحت ماريا رمزاً لاخفاقه [يتابع حركاته].. كانت راهبة.. راهبة دير كاثوليكية آسرة الجمال.. استخدم كل أساليبه للايقاع بها ولكن.. دون جدوى..

واحد.. اثنان، هكذا، هبوط.. صعود.. [يعود للسرد فجأة]

بعد سنوات.. في يوم جهنمي من أيام الحرب الثانية، كان أهارون نيمروفسكي يركض في شوارع المدينة القديمة هارباً من حمم الطائرات..

[منذ الآن تتصاعد حدة حركاته مع توتر الحكاية]

وفجأة وجد نفسه أمام منزل الراهبة.. يالحظه السحري..! كانت ماريا تزور أمها المقعدة في تلك الساعة.. [يضحك].. حين يروي عمي تلك التفاصيل أكاد أقتل من الضحك.. ها.. ها
[تتلاشى ضحكته فجأة ويتوتر]
.. لم يكن أمام الراهبة الحسناء سوى أن تؤوي مستجيراً مسكيناً من لهب الطائرات
[صوته يختلف ويصبح أقرب إلى الهمس كأن المشهد الذي يرويه يجري أمامه]
.. في القبو.. جلس عمي بأدب [تفلت منه ضحكة قصيرة ساذجة].. ماريا قدمت له شراباً [يهمس] وركعت أمام الأيقونات.. وراحت تصلي [تتهدج أنفاسه كأنه يراها].. صلّت الراهبة الحسناء بخشوع [بشبق].. لم تنتبه لمفاتن الجسد التي تئنت في ملابسها السوداء
[تتهدج أنفاسه وتتواتر حركاته]
.. كان مشهد الصلاة مثيراً [تتصاعد حركاته] والطائرات تصب حممها.. [بوحشية].. كان عمي مضحكاً [تتصاعد أنفاسه ويشتد توتر حركاته] كانت فرصته.. فرصته.. لم يتركها لتنهي صلاتها.. [تصل أنفاسه وحركاته إلى ذروة أكبر].. لم يتركها.. انقض..
[حركاته وأنفاسه في أعلى حد] انقض عليها.. واحد.. اثنان.. هبوط.. صعود.. [يهيج] هبوط..
الخوف.. الطائرات تصب الحمم على الأبنية.. هبوط.. صعود.. هبوط.. ولم يتركها، ولم يتركها.. لم يتركها.. [يتراخى شيئاً فشيئاً وكأنه كان يغتصب ماريا].. هبوط [بصوت واهن].. حتى.. انتهت الغارة.. آه.. حتى انتهت.. حتى.. انتهت..
[تسترخي حركاته أكثر ثم يقفز عن السور وهو يضحك بغتة]
ألا ترى!.. تعلّم هكذا.. يمكنك أن تصنع شيئين في وقت واحد..

أليس صحيحاً؟.. مثل أهارون نيمروفسكي [يقهقه] الحب، والرعب مثلاً [يضحك] أجل، تماماً كما حدث لأهارون..

[يقهقه ويغادر إلى ما وراء السور]

محمود : [يستدير ويتحرك كأنه يسير على سحاب] شيئان في وقت واحد [صوته شارد].. كان هذا يحدث هنا.. في بيت صفافا.. أشياء كثيرة حدثت في وقت واحد..

[صوت لغط بعيد من الكيبوتس]

صوت كاليشر : [بعيداً] هيه.. شلومو الطيب.. هل ستقضي العمر نوماً.. شلومو انهض وشاركني كأساً.. هيه.. شلومو..

[يتلاشى صوته رويداً رويداً.. ينطلق من بعيد صدى طلق ناري يتلاشى بسرعة كما ظهر. لا يبقى إلا صوت صراصير الليل وعواء ابن آوى يأتي من مكان بعيد]

محمود : [يمد يديه إلى آخر مدى وكفاه تمسكان بالسراج بقوة متجهاً إلى مقدمة المسرح. ثم يتحدث بصوت ثابت وحزين]

.. في بيت صفافا أشياء كثيرة حدثت في وقت واحد قبل أن يبتر جسد القرية إلى نصفين، وأجد نفسي هنا وحيداً..

[يتذكر ويمد ناظريه نحو المدى المظلم]

كأني أراه الآن.. والدي أبا محمود، قامة فلاحية سامقة تركض نحو الحقول الغربية حيث اشتعل أزيز الرصاص..

[ينادي فجأة] "يا أبا محمود إلى أين تذهب.. المواجهة موت"..

[يروي].. لم يكن في بيت صفافا سوى عدد قليل من البنادق العثمانية [يتحدث بوتيرة سريعة] لكن اليهود كانوا يقتربون [صوت ضربات فأس في الخلفية - محمود ينادي].. عم تبحث في الحوش يا أبا محمود؟..

[يروي] : ركض إلى الفناء الخلفي.. أخرج بندقية مدفونة تحت إحدى الأشجار ورصاصا كثيراً..

[ينادي جهة الفناء الخلفي ويعيش الموقف مرة أخرى، فيما

يتعالى وقع ضربات الفأس عميقة وقوية كأنها نبضات قلب المشهد]..

- يا أبا محمود لا ترمِ بنفسك في الهلاك.. لم تعد شاباً.

[يتابع بإيقاع صوت مختلف]

كان الشباب وحدهم.. والبارود ينفد [الضربات في الخلف تتواتر]

- يا أبا محمود..

آخر ما سمعته منه كان صوتاً كجبل.. انتبه لفرحة يا محمود.. اذهب، انها وحدها في الحقل مع فاطمة،.. انتبه يامحمود.. انتبه..

[تخفت الضربات في الخلفية، ويعم صمت مطبق ثم يتابع محمود رواية الموقف]..

هو من كان ينبغي أن ينتبه. [صمت].. سقطت قذيفة مورتر. أطاحت بقامته الفلاحية العالية.. هوى العقال على التراب.. [بانتباه شديد].. أطلق أبو محمود الرصاص.. أطلق.. أطلق في النزع الأخير لكن رصاصته لم تصب سوى الهواء..

ركضت.. [يركض] ركضت.. ركضت إلى حقول الزيتون.. فرحة كانت حاملاً في آخر الشهر التاسع.. أركض [يدور حول نفسه كتعبير عن الركض] أركض يا محمود أركض.. أركض..

أسمع رطانة أفراد الهاغانا* تتناثر في الحقول.. ينادون بعضهم.. [لغط من الكيبوتس] يطالبون بالتسليم. ولم ينالوه [يتشبث بكرسي قريب كأنه متراس] ولم ينالوه.. ولم ينالوه..

[يصرخ فجأة] يا فرحة انتظري..

لن تستطيع رصاصة أن تودي بكل هذه الحياة.. يا فرحة انتظري [عواء ابن آوى] انتظري.. انتظري ياأختـ ـ ـاه....

[ينزل إلى أسفل الكرسي بانكسار ويتعامل معها وكأنها شاهدة قبر يتلمسها بحنان]

.. هناك حين هوت فرحة على تراب الحقل.. تغير لون أشجار

* الهاغانا هي أكبر العصابات الصهيونية التي ارتكبت مجازر بحق الفلسطينيين عام ١٩٤٨.

الزيتون. وقريباً من المساء كانت شمس الغروب حمراء بلون الدم.
الدم.. وولدت زينب.. [بحزن شديد]
الرصاصة التي أصابت فرحة في الثدي عجلت في المخاض..
[صمت طويل ومحمود يقف ويحمل السراج عن الأرض]
.. من وراء الأسلاك عند بوابة مندلبوم في القدس قالت لي فاطمة : فرحة ابتسمت قبل أن تموت يا محمود..!!
[صمت كثيف ويأتي صوت محمود أشبه بالهمس]
شيئان.. شيئان في وقت واحد... الموت... وزينب!!
[بحزن هادئ وعميق] أشياء كثيرة حدثت في بيت صفافا في وقت واحد :.. يد أبي محمود كانت تحرث الأرض وعقاله يقبل ترابها والجرح في صدره ينزف.. ينزف، كلها في وقت واحد [باصرار] وقت واحد.
[ينفخ محمود على السراج فيطفئه ويعم ظلام كامل.. يسمع صدى لوقع خطى عرجاء، وتتوالى ظلال كاليشر حول المنزل.. فيما تدق الفأس ضرباتها في الحديقة مترافقة مع همة نفس ثقيل..
عواء ابن آوى أكثر اقتراباً مما كان في نهاية المشهد السابق]

المشهد التاسع

"حلـــــم"

[عودة سريعة إلى الليلة ذاتها.. في منزل محمود.. يسقط نور واهن على الغرفة العلوية حيث تنام زينب.
يتصاعد دخان ملون من أنحاء الردهة متماوجاً مع ضوء طفيف على المسرح بما يوحي بأجواء الحلم.. يسمع صوت هبات الريح في الخارج.. وعواء ابن آوى يأتي من بعيد.
- تتحرك زينب ببطء ثم تنهض من نومها. حركتها آلية هائمة وتوحي بأنها تحلم..
- تظهر زينب عند أعلى الدرجات الخشبية وهي تقفز على حبل تطوح به بحركات متوالية.. هي تلعب غير أن ايقاع حركتها بطيء وساهم
تبدو زينب سعيدة، وتسمع موسيقا ولغط أطفال يمرحون.. ثم، يعم تعتيم تدريجي.
- تظهر زينب من جديد وهي تركب الحصان الخشبي وتهزه وتفرد يديها كأنها تشعر بانطلاق الحصان سريعاً في السهوب..
- يظهر كاليشر في الركن المظلم البعيد، ويمشي ببطء وجدية، يصل إلى منتصف ومقدمة المسرح ثم يركع على ركبتيه موليا ظهره لها]

كاليشر : [صوته مثل رجع الصدى] يا صغيرة... يا صغيرة.

زينب : [تتوقف عن هز الحصان] مين..؟

كاليشر : أنا.. أنا هنا.. تعالي..

زينب : من أنت؟

كاليشر : أنا صديقكم.. انني وحيد.. لا أحد يكلمني.. ساعديني..

اقتربي..

زينب : لا.. أنت مخيف.

كاليشر : أنا.. لست مخيفاً [ينزل رأسه بين قدميه] أرجوك.. يا صغيرة.. يا صغيرة.

زينب : [تتقدم منه بحركات ناعسة وعيناها ساهمتان] ماذا تفعل في الليل...؟

كاليشر : [صوته سحيق ويشبه المواء] أنا مربوط من قدمي.. ربطني محمود.. رأسي تؤلمني.. أنا لا.. لا أحب الساحرات، ولا الأصوات التي تنادي في الليل.

زينب : ولكنك كبير.. وأنا صغيرة.. [يرفع رأسه وعيناها تنظران بعيداً].

كاليشر : رأسي.. آه.. رأسي.. [يميل برأسه بين قدميه أكثر].. أنا مقيد..
[يظهر وجهه تماماً مقابل الجمهور، وجه ذئب)
.. لا أحد يكلمني [يدير وجهه إلى الوراء وناحية زينب قليلاً قليلاً].. ارجوك.. ارجوك..
[يفاجئها بوجهه، فتصرخ بجزع رهيب].
[اطفاء... وعودة سريعة إلى حيث فراش زينب]

محمود : [ينتفض عند فراش زينب] بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله الرحمن الرحيم لا تخافي يا حبيبتي، كنت تحلمين.. تحلمين.. نامي.. نامي.
[اطفاء تدريجي.. ظلال على الأركان.. صدى وقع خطى عرجاء.. صوت تنفس زينب منتظم.. ينبثق صدى ضربات في الحديقة مع همة نفس ثقيل.
عواء ابن آوى أكثر اقتراباً مما كان عليه في نهاية المشهد السابق]

المشهد العاشر

"طلقـــــة"

[صباح اليوم التالي في ردهة منزل محمود.. من الخارج يأتي صوت يرغول. وصوت غناء أحد الرعاة يختلط مع ثغاء قطيع أغنام..

- فجأة يخترق الصوت أزير طلقات متتابعة.. صوت القطيع يضطرب، ويختفي الغناء وصوت اليرغول.

- يهرع محمود قادماً من الخارج وحاملاً فأساً، ويركض عبر الردهة إلى النافذة المطلة على السلك الشائك.. يفتح النافذة وينظر، بينما تتسرب أصوات عبرية تنادي على بعضها.. زينب استيقظت أيضاً.. تظهر مسمّرة عند أعلى الدرجات.

بعد قليل، يدخل كاليشر متباطئاً، ويقف بالباب بينما يكف محمود عن النظر عبر النافذة ويسند ظهره إلى الحائط..]

كاليشر : [يهز رأسه بأسف مصطنع] كان قريباً جداً.. راعٍ.. إنه أحد الرعاة.. هو.. هو ليس من بيت صفافا.. [مبرراً] أحد الحراس، ظنّه..

[يتوقف ويبدو الصمت كثيفاً، فيفتعل نبرة غاضبة]..

لماذا يتسرع أولئك الحمقى بإطلاق النار..

[يمضي إلى النافذة وينظر من خلالها]

انهم يحملونه.. سينتهي هذا بسرعة..

[هدير سيارة، وينادي كاليشر شخصاً ما عبر النافذة]

.. هيه.. انتبه، ستحطم السارية.. دع الأغنام وشأنها يامردخاي.. الرعاة يدربون أغنامهم على العودة وحدها.. هه؟ ماذا ؟ للعشاء؟.. حسناً "بي سيدر" خذ واحداً فقط.. رأساً واحداً

لا أكثر..
[يلتفت كاليشر إلى محمود].. يحضرونهم من معسكرات التدريب أغراراً، ومباشرة إلى هنا..
[صمت ويتحرك محمود بخطى ثابتة ليتناول خشبة المحراث ويجثو ويبدأ العمل بطرقات بطيئة وخافتة.. زينب تهبط وتقترب من خالها وتتابع الموقف ساهمة].

كاليشر : إن لديهم أوامر يا سيدي.. [يتساءل].. لديهم أوامر؟!
حسناً.. ولكن عليهم أن يدققوا جيداً قبل اطلاق النار.. [يتوجه بالحديث لزينب] هذا رصاص، وليس ماءً.. [صمت طويل].. ليكن أن الأغنام أخطأت.. الأغنام لا تعقل يا أخي..
[صمت].. ومع ذلك فبوسع ذلك الحارس الغبي لو فكر قليلاً أن يطلق النار على الشاة التي تجاوزت الحدود، وليس على سيدها..
[صمت وطرقات محمود على خشب المحراث تعلو قليلاً]
.. لا فائدة.. لقد قضي الأمر الآن ووقع ما وقع.. هناك أشخاص لا يمكنك أن تكون مسؤولاً عن تصرفاتهم.. [صمت طويل والطرقات على خشب المحراث معبرة].. مع ذلك، فإن سقوط ذلك الراعي الشاب لهو أمر محزن حقاً.. [يلتفت] كان يعزف ويغني بصوت شجي.. وجوده كان يكمل مشهد الطبيعة.. [يتجه بالحديث إلى محمود مباغتة].. مرة في جنين رفضت أن أُطلق النار على حمار.. لم اطلق النار.. رغم ان ذلك الحمار كان مسلحاً.. أقصد أنه كان ملغماً ومتجهاً صوبنا..
[الطرقات على النير متسارعة قليلاً]
لا استطيع ان اقتل حماراً بريئاً.. إن هذا ليبعث في نفسي اشد الحزن.. [صمت].. نحن القدماء في الخدمة سوف نظل شيئاً آخر.. كنت أكثر تروياً من هؤلاء الحمقى إن وقفت في برج المراقبة.. صحيح أن عينيّ كانتا ترصدان أصغر نأمة على الأرض، ولكنني لم أسمح لإصبعي أن تطاوع الزناد في كل

شيء.. وإن فعلت فأنا أطلق النار بهدوء.. طلقة واحدة تكفي.. يجب ألا نقلق الجوار.. طلقة.. واحدة.. [صمت.. ويتابع بأسلوب كهنوتي].. رباه.. كم كنا بائسين..
[بنبرة مباغتة] الحراس يا سيدي لا يحبون الظلال حول محارسهم.. يفضلون ان يصرعوا الظل قرب الأسوار قطعاً للشك.. لذلك فهم يطلقون.. [الطرقات على النير].. يطلقون.. يطلقون..
[صوت أنفاس كاليشر تتداخل مع إيقاع الطرقات على النير]

.. مرة.. هنا.. في شهر الصيام عندكم.. رأيت من محرسي ظلاً.. كان الغروب في آخره.. [يهمس] والظل، يقترب من السور..!
[صمت وإيقاع الطرقات على النير خافت]
.. هل كان ظلاً بريئاً؟ [يجيب].. الحارس ليس لديه وقت للتفكير في هذا.. وايضاً، ذلك الشاب أفزعني وهو يقترب من السور، وينادي على منزل قريب في الجهة الأخرى..
[تخفت الإضاءة وطرقات محمود تبعث الغموض في المكان]
.. يحتضن.. يحتضن شيئاً في يديه..!!
[كأن كاليشر يرى المشهد الآن].. يقربه من صدره.. [فجأة ويغضب].. لم أكن متوهماً.. أقسم أنه كان يحمل أشياء تكفي لقتل خمسة منا في لحظة واحدة..
[كأنه يراه فيهمس]
.. الشمس غابت تماماً، وكان ينادي.. كأني أراه الآن [تخفت الإضاءة أكثر فأكثر].. ينادي..
[يتوقف محمود عن العمل ويقف ليسير إلى الأمام قليلاً، ويسقط نور واهن على قسماته، فيظهر فيها إحساس التذكر فيما اصبحت الردهة معتمة تماماً.. محمود سوف يؤدي في مشهد

التذكر دور الشاب فايز الذي اقترب قبل سبعة عشر عاماً من السلك الشائك الفاصل بين قسمي قرية صفافا].

كاليشر : [يهمس، فيما الضوء ينسحب عنه].. كان قريباً جداً.. قريباً.. [باصرارٍ عنيف] قريباً [محمود في بقعة الضوء يقوم بتمثيل فايز]

فايز : [يضم إلى صدره شيئاً.. يقترب متوجساً ويتلفت حوله.. يرفع رأسه وينادي بصوت أقرب إلى الهمس]
.. يمّا*.. يمّا.. ردي عليّ يا أمي.. [كأن صوتاً سأله من انت].. أنا.. أنا فايز يماً.. كيف حالك يمّا.. كيف حال أختي زهرة.. آه.. ماذا سأقول.. إن شاء الله يا أمي يأتي رمضان القادم وتكون البلاد تحررت..
هيه!.. يا أم فايز.. أين ذهبت؟.. إنزلي أو ارسلي أحداً ليأخذ مني هذا الصحن.. طبيخ رمضان.. ورق دوالي بلادنا.. سمية زوجتي أرادت أن تطبخ هذا الطعام من أجلك، قالت : عمتي تحب ورق الدوالي..
[صمت حزين]
.. يمّا.. ؟ راضية عليّ يمّا..؟ لا تحرميني من دعواتك.. آخ.. ملعون ابو الغربة.. في أرضنا، وبيننا أمتار ولا أستطيع أن أصل اليك واحضن رأسك وأُقبل فيه الشيب الطاهر.. والله غربة يا ناس..
[صمت حذر ويتلفت فايز حوله متوجساً فتسقط في الجهة المقابلة بقعة ضوء على وجه كاليشر الجامد في الركن الآخر ثم تختفي بسرعة]
.. هيه.. يا أم فايز.. بسرعة قبل أن يراني الحارس.. خذي هذا الصحن.. يمّا عجلي.. سُمية تنتظرني.. يجب أن أعود قبل أذان المغرب.. [يظهر كاليشر مرة أخرى ويختفي].. يمّا.. [بتوتر].. الحارس اليهودي.. [يظهر وجه كاليشر ولا يختفي هذه المرة]..

---

* يا أمي بالعامية.

الحارس يمًا.. الحار.. [أزيز طلقة واحدة فقط] يـ.....ا آآه
.. [يفزع رف عصافير في البرية ويعلو فجأة أذان المغرب.. وفايز
يسقط متهاوياً في ايقاع بطيء ويتدلى رأسه من حد خشبة
المسرح...
عواء ابن آوى.. أكثر اقتراباً]

المشهد الحادي عشر

"فاطمـــــــة"

[مساء اليوم التالي في الفناء الخلفي من المنزل..
- المسرح مظلم، ويتوالى تدريجياً وقع ضربات فأس.
- الضوء يرتفع ببطء ويظهر محمود وزينب تحت احدى الأشجار محمود يجرف تراباً وطيناً بالرفش وزينب تحمل السراج لتضيء له]

محمود : [وهو يواصل العمل] هل تشعرين بالبرد؟

زينب : لا.. الطقس دافئ.

محمود : لماذا خرجت حافية؟

زينب : [لاترد.. وتتحدث بعد قليل وهي تجيل نظرها في المكان] دائماً أسمع من نافذتي ضربات فأس في الحوش.

محمود : [لا يجيب]...

زينب : الضربات في الليل فقط [صمت طويل ثم تهمس لمحمود].. لا تريد أن يعرف أحد بذلك؟

محمود : [لايجيب]..

زينب : [تتردد ثم تخاطبه] خالي.. تبدو حزيناً..

محمود : [لايجيب ويستمر في الحفر]

زينب : عمّ تبحث؟

محمود : [من خلال أسنانه].. أبحث..؟

زينب : أجل.. ألا تبحث عن شيء؟

[دون أن تنتظر إجابة تمشي إلى مقدمة خشبة المسرح وتنظر إلى الأمام بعيداً حيث اتجاه الأسلاك الشائكة التي تقطع قرية بيت صفافا إلى قسمين]

زينب : [تحدق إلى المدى وتهمس].. أفعى سوداء.
محمود : قربي المصباح.. تعالي إلى هنا.. لم أعد أرى جيداً.
زينب : [من مكانها] خالي هل يستطيع الإنسان أن يقفز عن تلك الأسلاك الكبيرة؟
محمود : [دون أن يتوقف عن العمل] اذا اراد يستطيع.
زينب : هل قفزت عنها أنت؟
محمود : قفزت.. مرة واحدة.
[يبزغ فجأة صوت عواء ابن آوى قادماً من البرية]
زينب : ابن آوى !!
[صوت ابن آوى مرة ثانية]
كم هو حزين.. [لمحمود] خالي، إنه ينادي اخته.. "ريش الطيور"!
محمود : أ..؟.. نعم.
زينب : [ساهمة] و "ريش الطيور" تسمعه من الكوخ..، سهرانة لتنسج له وشاحاً كي يشفى من السحر..
[عواء ابن آوى يظهر من جديد قريباً]
زينب : إنه ينادي [تنشد] :
خبروا ريش الطيور أنني ضوء القمر
كنت في يوم أمير ضحكتي أحلى وتر
حذروا ريش الطيور... من كلام وخطر
زينب : خالي، هل الحكايات تحدث في الحياة؟
محمود : ربما... أيام الناس كلها حكايات.
زينب : يعني، يوجد أمير مسحور!؟
[محمود لا يجيبها.. عواء ابن آوى يأتي من البراري]
محمود : [ينادي زينب] لا تبعدي المصباح عني.. إبقَي قريبة
[زينب تحدق إلى البرية]
زينب : [تشير إلى الظلام وهي ساهمة] "ريش الطيور" هناك... في

مكان ما..
هناك حيث يعوي ابن آوى
[تكور كفيها حول فمها على شكل بوق وتقلد ابن آوى]
آوووووو...

محمود : هيا زينب، ادخلي المنزل... أصبح البرد قارساً.
زينب : والحكاية؟
محمود : [بنفاد صبر] يا للحكاية !! الليلة أكملها لك.
زينب : الآن..
محمود : الآن؟! هنا؟!
زينب : [بإلحاح] أجل.. قليلاً منها ثم أذهب.
محمود : [يتوقف عن العمل ويتجه إليها] أنت حقاً متعبة.
[يحملها ويستدير ليشير نحو الأسلاك الشائكة]
أترين ذلك البصيص البعيد؟.. صوت "ضوء القمر" كان مثل ذلك الضوء في ليالي "ريش الطيور".. كلما سمعته كانت تبكي، لكن يديها تصبحان أكثر مهارة وسرعة في العمل لتصنع لأخيها وشاحاً يخلصه من السحر فيعود كما كان.. [عواء ابن آوى]
لكن المسكينة لم تكن تدري أن هناك من يتربص بها.
زينب : يتربص بها؟
محمود : نعم، يعني يريد بها شراً.. ففي إحدى الليالي، وبعد بحث طويل في الغابة، عرفت الساحرة مكان "ريش الطيور" فحولت شكلها لتشبه ابن آوى وراحت تعوي مثله وتنادي على "ريش الطيور" كي تخرج وتكلمها.
زينب : لكن ريش الطيور لم تخرج.
محمود : لم تكن تعرف أن هذا الصوت هو صوت الساحرة. ظنته صوت أخيها، فخرجت.
وعند ذلك نادت الساحرة : "يا ريش الطيور أنا ابن آوى أخيك، كلميني لأنني وحيد وحزين الليلة"..

.. ريش الطيور يجب ألا تتكلم، فلو تكلمت سيبقى ضوء القمر مسحوراً إلى الأبد..

زينب : تكلمت؟

محمود : أصبح البرد شديداً.

[ينزل زينب ويحضر بطانية عن السور يلفها حولها]

زينب : تكلمت؟!

محمود : ظل صوت الساحرة يتوسل : "كلميني يا ريش الطيور أنا أخوك كلميني.. كلميني".. وحين هممت بالكلام، ظهر ابن آوى الحقيقي "ضوء القمر" على تلة قريبة وراح يغني أغنيته كي يحذر أخته من الساحرة :

خبروا ريش الطيور أنني ضوء القمر

كنت في يوم أمير ضحكتي أحلى وتر

حذروا ريش الطيور... من كلام وخطر

[زينب تشاركه تذكر الأغنية] :

وأنا الآن ابن آوى.. تائه بين الوعر

سحروني يا أخيّة

حذروا ريش الطيور... من ظلام وخطر

محمود : وهكذا عرفت ريش الطيور أن ابن آوى الثاني إنما هو الساحرة الشريرة، فركضت ودخلت الكوخ وأغلقت الباب على نفسها ومضت تعمل في صنع الوشاح من جديد..

[صوت كاليشر فجأة يأتي من وراء سور الفناء، يغني كلمات غير واضحة]

صوت كاليشر : ترلا لا لا.. هيه أيها الأصحاب.. أين تختفون؟

كاليشر : [يظهر ويراهما] ها.. توقعت أن أجد أحدا هنا.. رأيت نور السراج.. ها، تمضيان أمسية ممتعة في ضوء القمر!

[يقترب ويقف على مقربة وينظر إلى حيث كانا ينظران]

تلك الأسلاك تبدو مثل هضاب حالمة.. أوه.. [بنشوة] لي

ذكـريات عـزيزة هناك.. هناك أشـرفت بنفـسي على وضع تلك الأسلاك قبل سبعة عشر عـامـاً.. أصبح ذلك ذكـريات الآن.. [يلتـفت بغتـة].. لم أعـتـد أن أجدكم هنا في هذا الوقت [يرى الفأس] هل كان السيد يعمل؟..
توقعت ذلك.. [صمت].. مثل هذا المساء الرائع قلما يتكرر في فـصل الشـتـاء، ويجب ألا نفـسـده بالعـمل.. الليل للاسـتـمـتـاع والراحة فقط.

زينب : خالي... أشعر بالبرد.

[يتـجـول مـحاذراً الحـفـر في الحـديقـة] يبدو المكان هنا في حـالة سيئـة.. [لمحمـود] من المؤكد أنك لا تـوليه عناية كـافيـة.. في مجدو اعتدت أن أعطي حديقة منزلي شيئـاً من الاهتمام أقلم الاشجار وأنظف التربة من الحشـائش وأشق القنوات مما يجعلها مؤنسة في الليل والنهار..

زينب : [متشبثة بمحمود] البرد أصبح شديدا!!

كاليشر : هنا المكان مـوحش وكـئـيب [يجـيل نظره بحـذر ويهـمس].. كـأن ظلال الاشجار أشباح..!

زينب : أنا خائفة.

كاليشر : [تزل قدمه في حفرة].. لعنة..

زينب : خالي، هيا ندخل.

كاليشر اللعنة.. [وهو ينهض من الحفرة]

هذه الحفر تذكر بالخنادق.. [في صوته قوة وفحيح].. الخنادق في الحـرب تصبح قبـوراً.. [تزل قـدمـه] اللعنة مـرة أخرى.. [زينب ومحمود يهمان بالذهاب].. كأنني في مقبرة..!
[يراهمـا يذهبان] هيـه، هل تذهبـان؟.. لماذا لا تبـقـيـان قليـلا.. [لايجـيـبان].. حسنا.. وهو ينتزع قـدمـه].. أنا ذاهب أيضـاً.. [من بين أسنانه] ربما أنني أصبت بالتـواء في قـدمي.. لماذا لا تردمـان هذه الحفر اللعينة.. ان حديقتكم لتبدو وكأنها في حالة

حرب.!

[يمضي وهو يشتم ويلعن، بينما محمود وزينب يقفان عند المنعطف الداخلي ويراقبان ذهابه].

زينب : [ساهمة].. الليل حالك!

محمود : [ساهماً] أجل.

[عواء ابن آوى]

زينب : [صوتها مرتجف].. كأنه ينوح..

محمود : ينادي!

زينب : هل تشعر بنات آوى بالوحدة؟

محمود : أجل، يمكن أن تشعر بالوحدة!

زينب : خالي.. كلامك حزين..

محمود : [يضمها بذراعه إلى جانبه، ويظل متجها بنظره باتجاه الاسلاك الشائكة]

زينب : خالي.. في الليل، حين يعوي ابن آوى.. يأتي صوت من وراء الاسلاك.. شخص حزين يغني، صوت غناء شجي وحزين يأتي من وراء الأسلاك، من الجهة الأخرى بعيداً.. هه!.. أتسمع؟..

[صوت غناء بعيد وحزين يتداخل مع عواء لابن آوى].

محمود : أجل.

زينب : أتعرفهم كلهم.. خالي؟

محمود : كلهم

زينب : ويتذكرونك؟

محمود : [لا يجيب ويضمها بذراعه إلى جانبه أكثر].

زينب : خالي..

محمود : ماذا..؟

زينب : أنت ترتجف!

محمود : [ساهماً إلى أبعد حد] أنا.. ينتبه] كلا.. زينب أدخلي إلى البيت.

زينب : وحدي.. ؟!

محمود : سألحق بك.

زينب : أخاف أن أعبر الفناء وحدى .

محمود : يجب ألا تخافي.. خذي السراج معك.. [تمشي زينب خطى مرتبكة].

زينب : [راجية].. طيب، تحدث معي وأنا ذاهبة..

محمود : حسناً.. اغلقي الباب وتدثري جيداً..

زينب : [وهي ذاهبة] تكلم.. أو غنِّ بصوت عال... حين أسمع الصوت، كأنك معي..

محمود : سأغني.. حسناً

[تنظر إليه مرة أخيرة فيغني وتهرع هي ماضية عبر الفناء]

محمود : [يغني ويبدأ بالحفر تحت الشجرة والضوء على المسرح أصبح قمرياً] :

لوّع الجمّال قلبي

لمّا نوى ع الرحيل

صوت زينب : [من الخلفية وداخل البيت].. خالي، ارفع صوتك قليلاً.

[يتابع الغناء بصوت أعلى]

قلت يا جمال خذني

قال أنا حملي ثقيل

.. قلت يا جمال بمشي

قال أنا دربي طويل

صوت زينب : لقد وصلت.. خالي، هل ستتأخر؟

محمود : [يغني] قلت يا جمال قلبي

مع غزالٍ في "الجليل"

.. قلت يا جمال خذني.. قال أنا دربي طويل

[يتوقف عن الغناء ويحدث نفسه فيما يتابع الحفر]

.. لست واهماً.. لابد أنها هنا...

صوت زينب : [صوت عواء ابن آوى]

محمود : من هنا صوت ابن آوى أعلى..

صوت زينب : [لنفسه] رأيته بأم عيني.

محمود : إنه حزين.!

صوت زينب : سبعة عشر عاماً، أجل، ولكنني رأيته يخرجها من هنا..

[بعبث طفولي تنادي من النافذة نحو البرية].. يا ابن آوى لا

محمود : تحزن.. "ريش الطيور" تحبك وستشفيك..

صوت زينب : [لنفسه] هنا.. هنا أبو محمود كان يخبئ غيرها.

[يأتي بعيداً وسحيقاً] ين آوى..

محمود : [صوت ابن آوى يأتي ضعيفاً من بعيد]

[يستند إلى جذع شجرة ويطوف بعينيه إلى أعلى ويأتي صوته هامساً ومعذباً]... أبي.. أحتاج إليك.. بيني وبين الأهل أسوار تتعريش بعضها..

[اصوات من الكيبوتس تتلاشى بسرعة]

.. فاجعة يا أبو "محمود".. ملامحهم تضيع..

[ضوء القمر ينسحب قليلاً ليحل ظلام تتخلله خطوط زرقاء واهنة.. يهوي بالفأس]

أنا أفقدهم [يضرب].. أفقدهم.. [يضرب بالفأس بقوة أشد] أفقدهم..

[ليس سوى الصمت وضربات الفأس المتلاحقة وعواء ابن آوى

محمود : يأتي من بعيد]

[يهمس وهو ينظر في الظلام] فاطمة [كأنه يراها].. ما الذي هدم الأيام بيننا!؟ ماذا جرى لنا ؟!.. فاطمة..

[يعود للحفر ويتحدث بقسوة متواترة مع ضربات الفأس ويروي]

.. كان قد مضى شهران.. بيت صفافا كانت مقسومة بالأسلاك الشائكة منذ شهرين.. الاسلاك الشائكة أشواك من فولاذ وقفت بيني وبين فاطمة.. وقفت بين يدينا ونداءاتنا... بترت كنصلٍ

قاطعة لقاءنا الأخير..

أكانت فاطمة تتذكرني؟... لو ناديت هل كانت ستجيبني من مكان ما؟...

كان قد مضى شهران.. وفي أحد الأيام ذهبت دونما هدف إلى القدس، رحت أمشي في طرقاتها العتيقة هائماً.. ولا أدري لماذا قادتني خطاي يومها إلى بوابة "مندلبوم"*!

[عواء ابن آوى]

صوت زينب : [من الداخل].. خالي.. أنا لم أنم.. [الصوت يغيب بطيئاً]..

محمود : ...[مستذكراً].. شبك حديدي.. حراس وأوامر وبنادق.. بوابة مندلبوم كانت بحراً من الوجوه الذاهلة... أهل لا يلتقون، بينهم وقفت أسوار شائكة..

[يعود ليهوي بالفأس بثبات وحنق. عبارته سريعة ومتتابعة]

.. مئات الأصابع تتشبث بالشبك الحديدي لتحظى بأثر لمسة واحدة.. أصوات تغص بالدموع واللهفة.. نداءات لا تصل.. لاتصل..

[فأسه تهوي بغضب وإلحاح]

صوت كالبشر : [يغني بعيداً] :

لديِ بيت

لديّ بئر

فوق بئري معلق دلوي

لديّ بيت... لدي كيبوتس.. [يضحك]

[يخاطب شخصاً ما] جدعون... جدعون.. أنت نائم؟! تترك البندقية تحرس وحدها؟!

[يغيب الصوت]

محمود : [يتوقف عن الحفر ويحدق إلى الظلام] لم أصدق عيني... عند بوابة مندلبوم لمحت وجهاً لايمكن لي أن أنساه.. وجهاً ريفياً ذابلاً.. [يهمس باستغراب شديد] فاطمة!!

---

* بوابة مندلبوم: أقامها الصهاينة بين شطري القدس الشرقي والغربي. وقد كانت النافذة الوحيدة التي أقيمت على الخط الأخضر التي يلتقي عندها الأهالي الفلسطينيون الذين تفرق شملهم وتبعثر =

[تتجسد الذكريات هنا.. ففي دخان طفيف يخرج من الظلام،

محمود : تظهر فاطمة أمامه.. صورة من الماضي]

صوت زينب : [يُفاجأ إذ يراها] فاطمة .!!

محمود : [يتداخل مع المشهد قادماً من المنزل] خالي تأخرت.

[ساهماً وهو يحدق إلى فاطمة].. هي فاطمة.. تقف منزوية عن الناس، وتتشبث بالشبك الحديدي للبوابة.. نظرتها شاردة

صوت زينب : عميقة.. تنظر ولا ترى أحداً..

محمود : خـ...الي...

[يقترب من فاطمة].. هي فاطمة!!.. تقف هناك وحيدة. لاأحد يكترث بها.. ثوبها الأصفر المطرز بخطوط سوداء وبشرتها التي تشبه القمح المقشر...

[يتقدم خطوات أخرى بهدوء من فاطمة ويجثو على ركبتيه

محمود : مقابلها فتفعل مثله]

فاطمة : [بصوت يشبه الهمس] فاطمة!

محمود : [بصوت هادئ وحالم] أكاد لا أعرفك!

فاطمة : وأنت تغيرت.

محمود : كل يوم، من شهرين آتي إلى هنا.. وأنتظرك.

فاطمة : [بحزن] شهران.. من أين لي أن أتوقع..

محمود : لمَ جئت إلى القدس اليوم.. ظننت أنك تبحث عني؟

قادتني قدماي.. لكنني لم أتوقف عن البحث عنك.. في القدس كنت أمشي قبل قليل في الطرقات العتيقة، أحمَل وجهك في ثنايا روحي.. كنت أتخيل أنك تسيرين إلى جانبي وتلتصقين بذراعي وتسألينني عن كل شيء ترينه.. وحين تشاهدين بيتاً

صوت كاليشر : جميلاً تقولين : أريد بيت حلواً كهذا.

[يغني في مكان بعيد في الكيبوتس]

لدي بيت

لدي بئر

= إثر احتلال ٤٨ .. سميت أيضاً بوابة الدموع نتيجة المواقف المحزنة التي كانت تجري عندها.

فوق البئر معلق دلوي
.. هيه.. أنا أرقِ..

فاطمة : أنت حزين..!

محمود : كنت تنتظرينني.. وتعودين وحدك كل يوم.

فاطمة : ولكني كنت أراك [تبتسم] أتذّكر، في الماضي كنت أنت الذي ينتظر.

محمود : أذكر. كنت تتأخرين كثيراً.

فاطمة : [بدلال] لكنني كنت أحضر في النهاية.

محمود : [يتذكر] عند الغروب.. أخر خيوط الشمس. ترمي وشاحاً ليلكياً على رؤوس أشجار بيت صفافا.. أراك مقبلة من الحقول، تتهادين مثل عروس بحر وثوبك الطويل يربك خطواتك..

فاطمة : كنت تقول لي : فاطمة انثري شعرك على ساعدي.

محمود : رائحة شعرِك عبقة كرائحة التوت البري!

فاطمة : مازال كلامكَ عذباً.. كأنه شعر.

محمود : [يمسك يدها] خاتمك!... مازال في يدك.

فاطمة : خاتمك..

محمود : ياللدنيا! كأننا الآن غريبان يلتقيان صدفة!

فاطمة : [تنتبه] الغروب يفاجئنا.
دائماً كان يفعل هذا بنا.

صوت أحد الحراس في الكيبوتس:
[يتداخل مع المشهد] هيه..! من هناك! ؟
[صوت قعقعة سلاح ثم عواء ابن آوى].

فاطمة : إحك شيئاً قبل أن يقفل الحراس البوابة.

محمود : ليت الزمن يتوقف الآن.

صوت الحارس : يا جدعون.. أهذا أنت؟

فاطمة : [بتوجس] الظلال القاتمة تهبط على طرقات القدس وقبابها.. إنه الغروب!

محمود : كم عمرك الآن يا فاطمة؟
فاطمة : [بتوسل] الغروب.. الغروب..، إحك شيئاً أخيراً!
صوت الحارس : [في الكيببوتس] من هناك؟..أنت!
محمود : لاتنتظريني يا فاطمة.
فاطمة : لا... سأنتظرك
محمود : الاسلاك الشائكة بيننا..
فاطمة : سأنتظرك.
الحارس في الكيببوتس:
قف.. قف..
[صوت إطلاق نار غزير حيث الأسلاك الشائكة]
فاطمة : [تتلاشى في الدخان والعتمة كما ظهرت وهي تردد] :
سأنتظر.. سأنتظر..
[إظلام.. عواء ابن آوى أكثر قرباً مما كان عليه في المشهد السابق]

المشهد الثاني عشر

"ليـــــل"

[صوت ضربات فأس مع همة نفس ثقيل.. بهو منزل محمود مظلم تماماً.. ومن الظلام يبدأ صوت محمود خافتاً ثم يتصاعد، وهو هنا يروي لزينب جزءاً آخر من حكاية ابن آوى]

صوت محمود : [ومضت الأيام] و "ريش الطيور" تعمل ليل نهار حتى تتمكن من نسج الوشاح قبل أن يصبح القمر بدراً... لكن الساحرة ظلت تلاحقها وتحاول أن تلحق بها الأذى وأن تخرب ما صنعته، ولذلك فقد لجأت إلى حيلة ثانية

... [تبدو ظلال آدمية تتداخل في المكان]

صوت زينب : لماذا توقفت؟

صوت محمود : ظننتك نمت.

صوت زينب : لم أنم.. كنتَ تقول إن الساحرة وجدت حيلة ثانية.

محمود : وفي إحدى الليالي، تسللت الساحرة العجوز إلى كوخ الحطاب ووجدت "ريش الطيور" نائمة فلم تستطع أن تسحرها لأنها لم تتكلم إليها.. وكانت تبحث عن شيء آخر..

زينب : الوشاح!

محمود : كانت "ريش الطيور" تنام وهي تحتضن الوشاح فمدت الساحرة يدها إليه وبدأت تخرب خيوطه وتفك رياشه.. وفي تلك اللحظة عوى ابن آوى في البرية..

[عواء ابن آوى، ويظهر كاليشر فجأة في أعلى الدرجات الموصلة إلى الغرفة العلوية]

كاليشر : [يقهقه] أنا أعرف هذه الحكاية [ينزل بسرعة] أعرفها ، دعني أكملها للصغيرة [لزينب] ألا تحبين أن أكمل لك الحكاية؟

[زينب تلتصق بخالها ولا تجيب].. طبعاً تحبين حسناً. أين وصلنا.. [يتذكر] يعوي ابن آوى في البرية، فتستيقظ "ريش الغراب"...

زينب : "ريش الطيور"!

كاليشر : آه... صحيح.. ولكن لا يهم.. المهم أن الساحرة تكون قد تمكنت من تمزيق الوشاح كله أليس كذلك؟ [يضحك].. ثم ماذا حدث؟ [يتذكر] لابد أن "ريش الغراب" ستحزن كثيراً.. وقد.. قد تموت من الحزن.. [يضحك].. تموت.. [صمت طويل].. أشعر الليلة بالأرق أيضاً.. لم أنم البارحة.. كانت الأشباح تأتي من حديقتكم [يضحك]... الأرق عدو عنيد..

[بجدية وإصرار عسكريين] حاربته بالأمس.. حاربته.. ولكنني لم أنم.. كنت كمن يحارب جيوشاً من الأرق..

[صمت طويل].. الحراس [يهمس] أمس حاربوا أيضاً.. لمحوا ظلاً يحوم حول الحارس [يتحدث بحزم] حسّار حارس لا ينام، لقد رأى الظل وهو يحاول أن يقفز.. تسلق وركض.. [يحرك ذراعيه بطريقة من يحمل سلاحاً ويصوبه فيما يصف الموقف بصوت هادئ].. تك.. تك.. تك.. وأرداه..

[إظلام تدريجي وعواء ابن آوى أكثر قرباً مما كان عليه في المشهد السابق].

المشهد الثالث عشر

"أسلاك شائكـــة"

[مساء اليوم نفسه.. الفناء الخلفي لمنزل محمود...
المسرح مظلم تماماً سوى من حزمة نور قمرية اللون، تسقط في وسط ومقدمة المسرح تماماً.. من العمق، وفي داخل الظلام يسمع صدى عريض لوقع خطى.. يظهر محمود في الداخل قادماً من منعطف الفناء.. ملامحه ليست واضحة، وهو يلتف ببطانية، ويتقدم ساهماً وناظراً نحو المدى.. خطواته ثقيلة ووئيدة.. يدخل حزمة الضوء القمري في مقدمة المسرح].

محمود : [ناظراً إلى بعيد.. ومناجياً].. أيها الليل، لمَ أنت حزين هكذا..؟!

[صوت عواء ابن آوى]

.. ابن آوى.. صوته كئيب.. [يشير بيده إلى الأسلاك].. الأسلاك الشائكة ظل ثقيل يترامى على الهضاب القائمة كلما عبرت فوقه كشافات الحراس...

[يضم البطانية إلى كتفيه بشدة ويرتعش..]

.. آه.. الطقس البارد يتآلف مع الذكريات في هذا الليل..

[يزداد شروده] لَمْ تفارقني هيئة فاطمة وهي تقف شاردة النظرات أمام بوابة مندلوم.. وحيدة، كسيرة لا أحد يكترث لوجودها.. ولا يأتي من تنتظرهم.

[صوته هامس ومرتعش] قالت.. سأنتظرك.. أعبر السور وتعال.. كلام كثير أريد أن أقوله لك.. ومال الظلام على بيت صفافا..

[يجثو على ركبتيه ويهمس].. الظلام مقلق، والحراس لا ينامون،

ولا يكفون عن الحركة..
[عواء ابن آوى يأتي صدى من بعيد]
وانا.. انا، كان يجب أن أعبر..

صوت حارس ١ : [يأتي من برج المراقبة] هيه... شلومو.. [بغضب].. مخمور؟!

صوت حارس ٢ : [بصوت ثمل] اهتم بنفسك.. انا.. نملة لا تستطيع أن تعبر من وجهة محرسي.

محمود : [وهو يموج بجسده ممتدا إلى الامام والاعلى، يتحدث بنبرة أقرب إلى الهمس].. كان يجب أن أعبر.. كانت فاطمة تنتظر..
[بإصرار] سأعبر.
[يمد جسده وهو جاثٍ إلى أبعد مدى]
سأعبر..
[يتردد صدى الكلمة الأخيرة]

محمود : [يجفل فجأة].. محمود.. ماذا لو لمحك الحراس..؟
[صوت عواء ابن آوى كأنه نذير]
لكن.. ماذا لو انتظرت فاطمة في البرية وحدها؟.. كان التردد صخورا صقيلة تشد الأقدام إلى الأرض.. ثقيل ايها التردد
[يدور حول نفسه] اتركني.. [بعنف] اتركني سأعبر..
[ينتزع البطانية عن ظهره بعنف ويفردها امامه وهو يشدها من طرفيها بامتداد ذراعيه، ثم يختفي وراءها تماماً بحيث اصبحت تفصله عن المشاهدين كأنها سور.. ينزلها ببطء قليلاً ويمد جسده إلى الأعلى ليظهر رأسه فقط فوق حد البطانية تماما، وهنا يحاول أن يصور محاولته لعبور الأسلاك الشائكة قبل سبعة عشر عاماً...، يجول برأسه يميناً ويساراً].
... أعرف هذه الأرض كما أعرف ظاهر كفي.. كان ليل بيت صفافا حزيناً كما هو الآن...
[عواء ابن آوى ويتسارع ايقاع صوت محمود]
المسافة تتسع.. [يشيح بالبطانية إلى وراء ظهره].. تهرب من

قدمي.. [همساً].. لغط الحراس.. ينادون.. أصواتهم تتداخل..
كشافاتهم اذرع ضوءٍ تزحف فوق رؤوس الأشجار...
[ينبثق صوت موسيقا متوترة فيها أصوات الطبيعة وترافق الحدث]
كنت أركض.. [يماوج البطانية حول جسده، ثم يبدأ بالدوران على نحو متسارع].. اركض.. اركض.. اذرع الضوء جن جنونها.. عددها صار أكثر.. صار أكثر [تتسارع حركته] اكثر.. اكثر.. [يصرخ] رصاص.. [يهوي في مكانه متكورا والبطانية تغطيه حتى جبهته.. بعد صمت، يهمس وصوته مرتعش]
.. سكتوا.. كشافاتهم هدأت.. لقد اطمأنوا ودب الرعب فيَّ أنا..
[يلتفت محدقا أمامه بشدة]... من أنت...؟؟
[يروي محولا وجهه عن الجهة التي كان يحدق فيها] قفزت السور الشائك، لكنني وقعت مباشرة أمام شيء متكور على نفسه... كان أمامي تماماً... أنفاسه في وجهي.. عيناه تحدقان...!
[يحدق في ذلك الاتجاه وبنبرة أشد من الأولى يسأل]
.. من أنت؟
[صوت هامس].. ظل يحدق رد علي : انا.. هه أنت.. من!؟
[يتابع مأخوذاً بهمس حاد... كلماته متسارعة]...
كان ذلك صوتاً لا أستطيع أن أنساه.. صوتاً أعرفه!!... ليس في بيت صفافا من له ذلك الصوت سوى محمد العوض...،.. صوت رقيق اخنب لا يتناسب أبداً مع ضخامة جسد صاحبه.
[يلتفت بغتة إلى الكتلة المفترضة ويجثو أمامها ويتحدث بهمس وهدوء كأنه يوقظ بلطف شخصاً نائماً] :
محمد!.. أنت محمد!.. [يعلو صوته] محمد ابن يوسف العوض.. [بفرح باكٍ] يا أزعر.. أنا محمود القاسم.. أخوي

محمد [يعانق البطانية وقد كورها بين يديه].. كأنني أعانق بيت صفافا كلها يا محمد.. كأنني اعانق بيت صفافا!.
[يتحدث متخيلاً أنه يعانق محمد العوض].. لم يفلت اطراف ثوبه.. كان يضم في داخله شيئاً ما إلى صدره.. عانقني دون أن يفلت ثوبه، وظلت تأتأة صوته تتلاحق في أذني.
- انتبه.. محـ ـ ـ.. محمود.. حبات البندورة في الجلابية..
-.. محمد، ماذا تفعل هنا..؟

محمود : [يروي].. كان قد جاء ثلاث مرات إلى هناك.. قريباً جدا من السور الشائك.. قال لي : اتسلل لأجمع شيئاً.. شيئاً من محصول البندورة.. مش حرام! أن يذهب تعب العام كله لهؤلاء الكلاب.. زرعته بيدي.. زرعته بيدي يا محمود، وأخذوه.. زرعته من شهرين.. قبل.. قبل أن يحتلونا.. "وبكى، الدموع غسلت وجهه".
[صوت محمود أسيان].. آه.. كيف يعيش الناس عندكم؟ كيف تعيشون؟
قال لي.. ابكي كل يوم.. وكان منشغلاً بحبات البندورة التي انهرست في ردائه.. لم يكن كلامه مترابطاً وواضحاً..
قال لي هل الحارس اليهودي قريب؟.. لم أعرف أنت تحبني كثيراً يا محمود [عواء ابن آوى]
[لغط الحراس وصدى قعقعة سلاح.. محمود يحدق إلى جهة السور ويهمس بحذر]
نسينا أنفسنا، فارتفع صوتنا..
[تنز طلقة واحدة حادة]
[همسه فيه بحّة] طلقة.. طلقة واحدة لم تصيبني.. لكني كنت احس بوجودها أشعر كأنها بيننا.. يداي.. [يميل بيديه وجذعه].. يداي أصبحتا ثقيلتين.. على صدري سال ماء دافئ.. [ذاهلاً

وهو يميل مع البطانية ويشدها مع طول جسده المائل].. لا، ليست حبات البندورة التي انهرست بيننا.. كانت، كانت رائحة أخرى..
[يخاطب الجسد المفترض بهمس مرتعش].. محمد.. محمد..
[يحدق].. عيناه اتسعتا.. [مروعا].. اتسعت عينا محمد..
[يميل مع الجسد].. جسده ثقيل أنفاسه تتلاحق.. رأسه يميل إلى الوراء، وسال خيط دم رفيع من زاوية فمه..
[يميل وقد جثا على ركبتيه متشبثا بأطراف البطانية]
كان صوته نحيلاً : خيا*.. اخ.. محمود خيا..
بطهري...بظهري..
آآاخ..
[كأنه يراه الآن أمامه يحتضر ويداه متشبثتان بالبطانية بعنف]
محمد.. [يهمس ويهزه] محمد.. محمد العوض.. [صوت محمود ملتاع]..
... لم تكمل حديثك عن حال الاهل.. يارجل انتظر.. انتظر..
[بسذاجة وحزن طفوليين].. كنت أريد أن أقول إنني أحبك كما أحب تراب صفافا ومزارعها التي شققت يديك.. محمد.. محمد رد عليّ.. رد عليّ.. محمد.. [يتوقف فجأة كمن رأى شبحاً..
وكأنه الآن ايقن ان محمد العوض قد مات.. بحركة ذاهلة يغطي الجسد المفترض بكامل البطانية فيعوي ابن آوى].

محمود : [ينظر نحو السماء بالتفاتة حزينة].. ايها الليل.. لماذا تبدو حزينا هكذا..؟!
[يصحو من الذكريات.. يقف فيستشعر بالبرد.. يتناول البطانية ويلفها حول كتفيه]
البرد.. آه.. البرد القارس يتألف مع الذكريات..!
[يستدير محمود ليمضي فيظهر رأس كاليشر من وراء سور الحديقة بطريقة مباغتة تحت ضوء ضعيف].

كاليشر : الأرق [يرفع رأسه أكثر من وراء السور].. الأرق أعادني إلى

* أخي بالعامية الفلسطينية.

هنا.. [يقفز عن السور ويبدو مخموراً].. مازلت تعمل أيضاً؟
[يمشي محمود بخطى ثابتة عبر الحيز المظلم من الحديقة، لكي يغادر]
.. ألن تبقى قليلاً يا صديقي؟ [يضحك].. موفقة، يا صديقي هذه!
[يضحك ثم يتجهم فجأة ويضع يده على جبينه]
منذ أعوام اعاني نوبات الأرق اللعين [يتقدم مترنحا].. ماذا جرى لي؟ بتُّ لا أنام أكثر من ساعتين في اليوم الواحد!
[محمود يكاد يصل إلى منعطف فناء المنزل]
.. أنت وحدك؟.. خيل لي أنك كنت تكلم أحداً [صمت] ربما كنت تكلم نفسك بصوت مرتفع.. أجل [يضحك فجأة] أحياناً أفعل ذلك.. خاصة.. [يترنح] خاصة إذا كان المساء غريباً.. يحدث نفسه] كما هو الآن [بهمس حاد].. كأننا في مقبرة..
[يدخل كاليشر حزمة الضوء القمري في مقدمة المسرح]
هذا يبعث في الذاكرة أحداثاً مشؤومة [يعلو صوته].. ما أكثر صور الأموات في الذاكرة.. [يلتفت] من حديقتكم تأتي الأشباح..
[يضحك.. ثم يلاحظ أن محمود قد أوشك أن يغيب وراء المنعطف]
.. أحقاً ستغادر؟.. تعال نسهر.. نسكر [يضحك].. أنا أرق، والكيبوتس نائم.. تستطيع أن تواصل العمل، وأنا أثرثر.. كما يحدث عادة.. كما يحدث لكلينا.. عادة..
[يخرج محمود ويغيب ظله]
لماذا لا أسمع إجابة.. [بغضب].. هل عليَّ أن أكلم الحجارة وهذه الحفر والأشجار الخرساء؟! [ينادي وهو يترنح] هيه.. توقف.. لن تتركني وتذهب.. هيه [بغيظ وغضب] أنا أشعر بالأرق.
[صوت انغلاق باب منزل محمود يحدث صدى عالياً]

مجانين.. يكلم نفسه، وحين أحضر يصبح حجراً أخرس..!
[يترنح] أين أذهب؟..
[صوته هامس مكسور النبرة].. هذا الأرق كريه.. استرخِ يا كاليشر.. استرخ فأنت متعب.. آه [يترنح] حسناً.. أنا متعب.. سأستلقي على كرسي وثير هنا..
[يمضي إلى العمق ويمسك المحراث الخشبي ويجره وراءه بجهد نحو مقدمة المسرح]
ثقيل!.. ثقيل!
[يضع المحراث بعد جهد تحت حزمة الضوء القمري في مقدمة المسرح]
.. آه [بانتعاش].. الآن صار عندنا كرسي..
[يخرج زجاجة خمر من جيب سترته]
وزجاجة! [ينظر للزجاجة باعجاب ثم ينظر للأعلى].. وقمر مطيع ينصاع للأوامر [ينادي].. لا تختفي الآن أيها القمر.. كيبوتس غوديم يحتاجك...
[يقهقه ويجلس على المحراث فلا يرتاح لجلسته]
.. الكرسي ليس مريحاً..
[يعدل جلسته فلا يرتاح أيضاً.. ثم ينظر متفحصاً المحراث ويقف محدقاً كالملدوغ]
.. حتى.. حتى كراسيهم تشبه الأشباح.. مجانين [يترنح ويهمس بتعب]، الأرق..!!
[يجلس على المحراث من جديد]
لمَ لا تحدث نفسك يا كاليشر؟.. بم أحدثها؟.. هذا الأرق معذب.. [ينادي] ألن يأتي أحد إلى هنا!؟.. [صمت].. بم أحدثك يا كاليشر..؟ [ينظر باتجاه حزمة الضوء].. أنا حزين.. هذا القمر عرف كثيراً من أحزاني..
[يشرب من الزجاجة ثم يعيدها إلى جيب سترته]

.. أيها القمر الغبي أنا أحدث نفسي فقط.. [بصوت خافت] أتذكر.. [ينظر باتجاه حزمة الضوء الساقطة عليه].. أمارس لعبة التذكر.. [يخاطب القمر] هل ستذكرني أنت؟ هه؟ ماذا تقول؟.. كيف خطرت في بالك؟!.. إنها تلك الأحزان.. آه.. الأحزان الحقيقية.

[يصمت ويتلفت حوله فجأة ويهمس بفحيح حاد].

.. كأنني في مقبرة.. هؤلاء العربوشيم* حدائقهم كالمقابر.. [يتذكر] منذ ستة عشر.. سبعة عشر عاماً.. [يحرك يده بضيق] ليس عليّ أن أتذكر التفاصيل..

[يذهب بنظره بعيداً]

أنا وكوهي.. [يهز رأسه موافقاً] وغيئولا.. أجل.. كنا نركب سيارة الجيب، في الطريق من تل عَدشيم** إلى بيت شان***... في درب وعر...

[يهتز فوق المحراث الخشبي ويحركه مع خفقات جسده كأنه يركب سيارة تمر في طريق وعر].

.. طريق عسكري.. وليل.. وقمر.. [تتغير نبرة صوته].. ولكن ذلك محزن.. أليس كذلك؟

[يتلفت حوله] من أخاطب؟... أليس كذلك يا كاليشر نيمروفسكي.. أن تكون مسافراً، ثم فجأة يبرد جسد غيئولا بجانبك.. [يفح] يصبح صقيعيا.!!

[يعود الى الاهتزاز كأنه في الجيب]

في مواجهتي يجلس في السيارة، يجلس كوهي.. [يخرج علبة سجائر]

... دخن كوهي [يخاطب شخصاً متخيلاً أمامه] الطريق طويلة... لا تريد حسنا..

[يشعل سيجارة وجسده يهتز فوق المحراث]

... اهتزازات الجيب، جعلت غيئولا تميل برأسها على كتفي

* تصغير لكلمة العربي بالعبرية ويستخدمه اليهود لتحقير الاسم العربي.

** التسمية العبرية لقرية «تل عدس» العربية. *** التسمية العبرية لمدينة بيسان العربية.

[بهمس شهواني].. فزحفت يدي إلى ظهرها... [يلتفت بغتة مخاطباً كوهي الذي يتخيله أمامه].
... لماذا سأتمنى أن تطول الطريق؟ [صمت] لعنة عليك!.. أنت تراقبني؟!
[يعود للاهتزاز ويروي]
... نام كوهي، ومال رأسه على كتفه الأيسر.
[كاليشر يزعق محذراً].. نَمُر من منطقة معركة... لكنها بعيدة.. أيها السائق انتبه [يحني رأسه محاذراً ثم يرفعه ببطء ويروي].
.. أسرعت السيارة.. [يهتز بقوة وايقاع متسارع].. تسللت يدي تتحسس أنحاء جسد غيئولا البض... [صوته هامس وشهواني ثم التفت حول رأسها.. يده تزحف على المحراث] زحفت لتغرق في نهديها.. كانا طليقين بلا صدارة..
[فجأة].. صاح السائق، إننا نقترب من بيت شان... استعدوا..
[يجفل وترتعش يده].. لكن.. لكن شيئاً ما.. شيئاً جعل يدي تتصلب فوق نهدي غيئولا...
[يستذكر مصعوقاً ويتحدث بسرعة]
... قبل أيام حين اختليت بغيئولا في دغل بتل عدشيم، كان.. كان جسدها نارياً!
[يشتد اهتزازه على المحراث] أما الآن.. [محدقاً] نهدا غيئولا كانا.. باردين.. كل جسدها كأنه قُدّ من ثلج.
[يصرخ، وصوته فيه نبرة النواح] لا.. لا أحب لعبة التذكر..
[ينظر إلى مصدر حزمة الضوء الساقطة عليه ويجأر بوحشية]
ها نحن اذاً.. ها نحن ايها الآخرون..
نحن الذين تعلم منا العالم ان تكونه له قيمة ما.. [بأسى رجل مخمور] ان حبنا ليصاب بالصقيع، بالموت والحزن، حتى في ليلة مقمرة.. [يتفجر غضباً]...

لماذا لم تتوقف الدنيا.. الزمن.. لماذا لم ينتظر كل شيء في هذا الكون حتى تلتقي غيثولا بأهلها الذين وصلوا بعد أيام إلى مرفأ حيفا.. [بحنق].. لم يلتم شمل الأهل..
.. لن أرى بعد الآن جسد غيثولا.. كان رائعاً في الزي العسكري.. [بصوت خافت] امرأة حقيقية [فجأة ينظر للأعلى ويصرخ بغضب] أنا أشعر بالأرق!!
.. [كاليشر يسقط فجأة عن المحراث ثم ينهض مترنحاً قليلاً.. لا يظهر سوى وجهه الذي تسقط عليه حزمة ضوء خافتة الآن.. صوت عواء ابن آوى قريب]

كاليشر : [يصحو قليلا ويستعيد شيئاً من توازنه.. يهمس].. أنا وحدي [صمت ويتلفت حوله] منذ متى وانا هنا ؟!.. لاأحد.. هل كنت اكلم نفسي؟!
[صوت عواء ابن آوى ينبثق من السكون، ثم ينادي كاليشر فجأة]
أيها الرجل [صدى].. ما اسمه؟.. هو لم يقل.. [ينادي] يا صغيرة.. هل قلتم شيئاً؟.. [صدى].. هذا الصمت!.. [بغضب] هذا الصمت يهزأ بكل شيء!.. إنه يدق كالنواقيس في أنحاء جسدي..
[صمت ورجع صدى، ويأتي صوت كاليشر هامساً]
كأن شيئاً سيحدث بعد قليل.. [صوت عواء ابن آوى أكثر قرباً].. يجب أن يتوقف هذا..
[رجع الصدى، والصمت، وعواء ابن آوى]
.. لماذا لا ينزل أحد إلى هنا ؟ [ينادي باتجاه العمق والأعلى حيث منزل محمود].. لماذا لا نتحاور؟.. نتبادل الأحاديث.. أنا أشعر بالأرق.. هيا افتحوا أبوابكم.. أعرف انكم تنصتون خلفها.
[ينادي بغضب اشد].. اذا كانت بيت صفافا غاضبة فلتفصح.. [صمت طويل].. صمت اللعنة، ألن يتوقف هذا الأزيز!؟ [صمت

طويل وكاليشر يتحسس عنقه].. رباه "اني مرغيش"*.. أنا أرِق
[كأنه يختنق] أية قوة تستطيع الا تحفل بالكلام؟!
[يتلفت حوله ويفح بهمس سحيق].. كأنني في مقبرة!!
[عواء ابن آوى قريب. صمت طويل.. ويحاول كاليشر ان يكون هادئاً]
فلأصفّر قليلاً.. هذا سيؤنس وحدتي.. [يصفّر نغماً معيناً ثم يتوقف].. لا.. لا، ثمة نغم آخر..آ.. تذكر يا كاليشر.. آه [يستذكر] الآن.. [يصفر لحنا فيه ايقاع المارش العسكري ثم يتوقف].. الصفير لا يبدو نافعا.. الصمت صار الآن أقوى.. [يعلو صوته بغضب مباغت].. أية لعنة انصبت على هذا المكان..!!
[صمت طويل يقتحمه عواء ابن آوى، ثم يأتي صوت كاليشر هادئاً]
أنا.. راحل.. [يجيل نظره في المكان].. كنت أقول دوما : بيت صفافا ليست قاسية يا كاليشر... لكن... لكن ها أنا..
[بغضب] ها أنا أشعر فيها بالارق.. [يصيح باتجاه منزل محمود]..
اذا كنتم قد تعذبتم فهذا بسببكم.. تدفعونني لان أصرخ.. لان أصدر الاوامر، ثم تقفون في وجهي صامتين كالقبور...
[صوت عواء ابن آوى]
[كاليشر يصرخ].. ألن يكف هذا الحيوان عن النواح..؟!
[يعوي ابن آوى مرة أخرى]
[صوت كاليشر يرتعش] آه... صوته يجعل هذا الصمت مرعبا..!!
[يدور حول نفسه على نحو مباغت ويحدق في أركان المكان]
... لماذا جئت إلى هنا؟؟... [بهمس حاد]... كل شيء ميت..!!
[يتابع النظر حوله].. فيه رائحة الموت! [صمت] لا مكان هنا

* أنا أرِق بالعبرية.

سوى للموت !!.. الارق [يصرخ] "اني مرغيش".. الأرق..
[يدور حول نفسه دورة كاملة ويجأر بوحشية عارمة]
أنا مصابٌ بالأرق.

[رجع صدى الصوت يتردد فيما يظلم المكان تماماً وينبثق صوت
عواء حول
المنزل، وأشد وضوحاً مما كان عليه في نهاية المشهد السابق]

المشهد الرابع عشر

" الأرض "

[منزل محمود. البهو.. المكان مظلم تماماً، ثم تسقط حزمة ضوء على المحراث. يتبع ذلك صوت طرقات خفيفة على خشب المحراث - وسط ذلك يسمع صوت زينب وهي تنشد أغنية ابن آوى]

صوت زينب : خبروا ريش الطيور
انني ضوء القمر
كنت في يوم أمير
ضحكتي أحلى وتر

[تظهر زينب حين تتسع مساحة الضوء، وهي تركب حصانها الخشبي وتهتز فوقه كما يظهر محمود في الجهة المقابلة وهو يعمل].

زينب : أمس حلمت أن حصاني يطير
[محمود مواصلا عمله]
.. كان له جناحان كبيران!
[تفرد ذراعاها في إشارة إلى حجم الاجنحة]
طار بي إلى مكان بعيد.. أرض ليس فيها أسلاك شائكة..
[أصوات أدوات محمود في تعاملها مع خشب المحراث]

زينب : [تنزل عن الحصان وتمضي إلى محمود وتقرفص إلى جانبه وتشير إلى المحراث] انتهيت منه، صح؟

محمود : لم يبق إلا القليل ويصبح جاهزاً لعناق الأرض.

زينب : [تضحك] يحضن الأرض!.. المحراث؟!

محمود : لمَ تضحكين؟

زينب : تتحدث عنه كأنه انسان!

محمود : الخشب حين يصبح محراثاً ويلامس الأرض تدب فيه الروح.
زينب : وكيف يحرث!؟
محمود : [ينهض ويمسك بالمحراث] تخيلي أننا واقفان الآن في الحقل.
زينب : تخيلت.
محمود : أولاً يقترب رأس المحراث من كتف الأرض.. هكذا.. ثم يستريح في التراب.. هكذا.. بعد ذلك تضعين كفيك على كفيه وقلبك على قلبه وتسيرين معه.. فتفتح الأرض صدرها لك وله..
زينب : يا الله.. ما أجمل ذلك!
محمود : اسمعي.. انه ينبض..
زينب : [تقرب اذنها من خشب المحراث] آه ينبض.. بم.. بم!
محمود : [يمسك بالمحراث ويسير به وكأنه في حقل].. ويبدأ لون التراب يتغير!
زينب : وأنا أكون وراءك [تضم أطراف ثوبها] البذار في ثوبي.. أنثره فوق ثلوم الأرض...
[تسير خلفه يرافقهما صوت موسيقا وترنيمات جماعية دون كلام]
محمود : ويأتي فصل آخر...
زينب : شتاء...
محمود : يغسل المطر هموم الفلاحين ويشعل المدافئ في أمسياتهم.
زينب : والحكايات أيضاً.
محمود : [يجلس] ثم يكون ربيع.
زينب : زهور!
محمود : عصافير وبراعم ورداء أخضر!!..
زينب : وأطفال يغنون ويلعبون !! [تقبل على محمود وتتعلق بظهره].. ويطيرون..
محمود : يطيرون بأجنحة بيضاء نحو شمس الصيف.
زينب : أنا سأطير على حصاني..

محمود : المهم أن يطيروا.

زينب : والكبار ألا يحلقون؟

محمود : [يضحك] الكبار يذهبون إلى الحقول، لأن السنابل الذهبية تناديهم للحصاد حين يأتي الصيف.

زينب : الحصاد!

محمود : الحصاد

زينب : وفي الفصل التالي؟

محمود : تنام المحاريث في حضن الأرض من جديد..

زينب : [بمرح] وقلوبها تدق [تسرع نحو المحراث وتنحني لتضع أذنها على الخشب وهي تنظر بسعادة نحو محمود].. يدق [تهمس] يدق.. بم.. بم.. بم!!

[فجأة يتعالى صوت جرافات قادم من جهة سور الحديقة]

صوت كاليشر : [ينادي] أكثر.. أكثر.. اقترب أكثر من ذلك

[يهدر صوت الجرافة بقوة أكبر]

صوت كاليشر : [ينادي] تقدم من هنا... من هنا... أجل هكذا.. الآن إدفع

[صوت اصطدام يترافق مع جلبة عالية]

زينب : خالي!

محمود : السور... السور!!

[يقف ويتجه مسرعاً نحو الباب ويفتحه فيتعالى الهدير ويحتل البهو كله]

صوت كاليشر : تقدم بقوة أكبر.. [الجرافة تهدر] اضرب الآن.

[صوت الجرافة أقوى من السابق ويسمع وقع انهيار سور حجري.. ويترافق ذلك مع تصفيق وصيحات مرح من المستوطنين اليهود في المستوطنة]

صوت ١ : أحسنت يا بنحاس.. أنت تنفع لقيادة دبابة لا جرافة [ضحك]

صوت ٢ : رائع يا بنحاس خذ حجراً من حجارة السور واحفر عليه اسمك للذكرى [ضحك]

صوت ٣ : هيه. أيها المدمِّر، أهكذا تقود "زهافا" كل ليلة!

[ضحك جماعي يتلاشى رويداً.. ثم يظهر كاليشر في باب المنزل.. وينزع قبعته فيما يخطو إلى الداخل ببطء. محمود ممسكاً بالمحراث، يقف قريباً من الباب].

كاليشر : السور..
كنت أريد أن أخبركم بالأمس، لكن لم أشأ أن أفسد أمسيتكم.. تعرفون.. مساحة المستوطنة صغيرة وقد جاءنا بالأمس مستوطنون جدد.. يعني لابد لنا من توسيع رقعة المكان قليلاً.. طبعاً ليس على حساب بيتكم.. أبداً.. أبداً.. لكنكم تقيمون في منزل واسع [يضحك] وقد لا تحتاجون إليه كله فأنتم اثنان فقط.. أما نحن، فكما ترون، نتكاثر كل يوم [يضحك ثم يصمت فجأة]..
تستطيع أن تبني سوراً جديداً إن أردت، في المسافة المتبقية.. تستطيع ذلك.. أنت في بيتك.. في بيتك.

[صمت]
على كل حال، كان سور حديقتكم الغربي قبيحاً.. أقصد كان متآكلاً وواطئاً لا يشعركم بأمان كافٍ.. أليس كذلك؟ حسناً. حسناً الآن سيقوم سور عظيم بقربكم.. سور عالٍ.. عالٍ إلى أبعد حد... بأسلاك شائكة وبرج مراقبة ملاصق لسطح منزلكم تماماً.. هذا سيكون أكثر أمناً لكما بحيث تنامان قريري العين.. ممتع أليس كذلك! آه.. حقاً أجل..
[يستدير ويغادر على مهل، ويترك الباب مفتوحاً.. فتتعالى صيحات ماجنة وقهقهات قادمة من الكيبوتس
- زينب ومحمود واقفان في وجوم.. تهرع زينب إلى خالها وتحتضنه]

كاليشر : أنا خائفة.

محمود : [بهدوء، ويضمها] أعرف.

[إظلام تدريجي.. ثم يسمع صوت محمود قادماً من الظلام وهو يروي جزءاً آخر من حكاية ابن آوى]

محمود : ومضت أيام أخرى. وظلم الساحرة تحوم حول الكوخ وتطلق عليه سحرها، فمرة تتسلل لتمزق الوشاح فلا تستطيع، ومرة تشعل النار في أطراف الكوخ فتطفئها العصافير صديقة الأميرة بأجنحتها، ومرة ترسل ريحاً عاتية مسحورة لتقتلع الكوخ من جذره وتحطمه.. لكن ريش الطيور، ورغم كل ما حدث لها كانت ما تزال تعمل ليل نهار لتتم صنع الوشاح.. كان الوقت قد اقترب والقمر يكاد يصبح بدراً.. وريش الطيور وحدها تواجه الساحرة بالصمت.. بالصمت.

[ضربات فأس في الحديقة مع همة نفس ثقيل . هناك ظلال كاليشر تحوم حول المنزل.. عواء ابن آوى ينطلق جلياً أكثر قرباً مما كان عليه في المشهد السابق]

المشهد الخامس عشر

" ضـــــوء القمـــــر "

[في ردهة البيت.. الظلام كثيف.. وبعد قليل يظهر القمر، وهو يبدو على شكل حزمة ضوء بلون فضي وأزرق تسقط في منتصف ومقدمة المكان (المسرح) حيث يظهر محمود وزينب يجلسان وبينهما المحراث]

زينب : [تشير إلى القمر] القمر!

محمود : كم يشبه قمر الحكاية!.

زينب : كاد يصير بدراً!.. ألا تراه ريش الطيور؟!

محمود : مازال أمامها بضع دقائق.

[صوت عواء ابن آوى]

زينب : ابن آوى!.. إنه ينبهها كي تسرع إلى النهر.

محمود : جاءت الليلة الخامسة عشرة.. واقترب الليل من منتصفه.. وكاد القمر أن يكتمل..

[وهو يشير إلى القمر] بقي اثنا عشر خيطاً ويكتمل الوشاح..

زينب : يجب أن تسرع [تنظر إلى القمر وتنادي] أسرعي يا ريش الطيور]

محمود : وضعت ريش الطيور طرف ثوبها في فمها وانطلقت تركض في الغابة ذاهبة نحو النهر...

[ينبثق حول المنزل هدير جرافات سحيق يبدأ بالتصاعد مع مراحل الحكاية]

كانت تركض دون أن تتوقف عن العمل بالوشاح واقتربت.. اقتربت.. واقتربت أكثر

[يتصاعد صوت هدير الجرافات]

صوت كالبشر : [من الخارج] عوفر، خذ ذلك الاتجاه.. من هناك. تقدم.. وأنت يا دوري هيا من هنا

[تهدر الجرافة]

تقدم بثبات... تقدم... تقدم

[أصوات جلبة جماعية حول المنزل تتداخل مع هدير الجرافات]

زينب : خالي.. الهدير..!

محمود : [يرفع صوته كي لا يطغى عليه الهدير ويحتضن زينب الجالسة إلى جانبه]

"بقيت سبعة خيوط" وأمامها سبع خطوات.. والساحرة وراءها.. بينهما مسافة سبع أشجار..

صوت كالبشر : إبدأ من هنا [هدير الجرافة] من أول الجدران من هنا سيمر الطريق.. انطلق [يهتز البيت، ويتداعى فجأة الجدار الشرقي، ويتصاعد الغبار كدخان وسط صرخات المستوطنين وصيحاتهم.. يعول عواء ابن آوى قريباً]

زينب : [خائفة] خبئني..

محمود : [دون أن يلتفت إلى ما يجري، يتشبث بالمحراث ويتابع الحكاية]

... بقيت خمسة خيوط...وخمس خطوات... تقدم "ضوء القمر" كي يشرب من النهر واقتربت الساحرة أكثر.

[يتعالى الهدير من جديد، ويعوي ابن آوى]

صوت كالبشر : اقترب من هذه الناحية [هدير] أغرز هنا. أغرز... أجل.. هيا..

[يتداعى جدار آخر وينهار ببطء]

زينب : [تلتصق أكثر بخالها محمود وتنادي على القمر] يا ضوء القمر عجّل!

محمود : [يضمها ويتواتر صوته مع صوت الهدير]... بقي ثلاثة خيوط.. وأمام "ريش الطيور" ثلاث خطوات وراحت الساحرة تناديها بأصوات الريح والمطر كي تخدعها وتجعلها تتكلم..

[هدير الجرافات يتصاعد متحولاً إلى صخب يصم الآذان]

صوت كالبشر : الآن... اقتحم... اقتحم...

[يسقط جدار آخر والدخان يملأ المكان ويعوي ابن آوى في مكان قريب]

زينب : [متشبثة بمحمود ورأسها على خشب المحراث].. يا ضوء القمر أسرع!

محمود : خيطان.. خيطان فقط وخطوة واحدة.. وإشارة ضوء أخرى ليصبح القمر بدراً...!

صوت كالبشر : اقتحم.. [يتعالى الهدير]

محمود : آخر خيط.. آخر ريشة... ومدت ريش الطيور يديها نحو ابن آوى [زينب تمد يديها نحو شعاع القمر] وقذفت الوشاح في الهواء..

زينب : [تنادي وتحرك يديها كأنها ترمي الوشاح نحو القمر] خذ يا "ضوء القمر" وعد أميراً.

[يعوي ابن آوى في مكان أقرب فيبدو صوته أوضح ويظهر الهدير حول المنزل من جديد.. ثم تتلاشى جميع الأصوات...

بعد قليل، يزداد وضوح الضوء في المكان، فيظهر مشهد الدمار : هناك جدران ساقطة وتحولت أطلالاً فبدت ردهة المنزل مطلة من كوة واسعة على البراري تظهر من الكوة أسلاك شائكة مدها المستوطنون قبل قليل..

- يسير محمود وزينب بخطى واحدة نحو الجدران المهدمة.

- يلتقط محمود من الأنقاض قصبة اليرغول والسيف اللذين كانا معلقين على الحائط.. يعوي ابن آوى]

زينب : [حزينة] ألعابي تحطمت... غرفتي، ونافذتي التي تطل على الحديقة.

محمود : [يُقبل عليها ويحتضنها بصمت] سأبني غرفتك من جديد، وستكون فيها نافذة رائعة، وألعاب أصنعها بنفسي.

زينب : اسم "ضوء القمر" [ترفع حجراً عن الأرض وتنظر إليه وهي تمسح الغبار عنه]، كنت كتبته على جدار الفناء.. إنه مكسور.!

محمود : لاشيء يكسر ضوء القمر.

[يمضي محمود نحو المحراث الذي مازال موجوداً تحت حزمة الضوء التي تمثل شعاع القمر.. يحمل المحراث ويتجه به ليخرج من الكوة التي أحدثتها الجرافات].

زينب : خالي، أين تذهب؟

محمود : سأضع المحراث في الأرض.. الحقل هو بيته الآن.

زينب : الليلة؟

محمود : الليلة

زينب : [تجثو على الأرض، وتضع أذنها على خشب المحراث ثم تهمس لمحمود] : مازال يدق!.. قلبه!

محمود : [يقرب أذنه من خشب المحراث]... يدق بقوة! كأنه قلب انسان!

زينب : [تهمس كأنها اكتشفت شيئاً] خالي، أتسمع!؟

محمود : ماذا؟

زينب : [تهمس] الأرض!! [تضع أذنها على أحد الحجارة الساقطة] تدق أيضاً!! قلبها يخفق.. بم.. بم..بم!!

محمود : [يجثو قربها ويقرب أذنه من الأرض].. آه : ما أجمل هذا الصوت!!

[ينهض محمود ويحتضن زينب ثم يحمل المحراث ويخطو خارجاً من الكوة في الجدار... زينب تركض وتقف تحت نور القمر، وقبل أن يغادر محمود تناديه]

زينب : خالي!

محمود : [وقد أصبح يبدو كظل في العمق حيث اتجاه البراري].. نعم.

زينب : هل يسمع الغرباء صوت الأرض؟

محمود : كلا يا ابنتي.. إنهم عابرون.. عابرون.

[يغيب محمود في الظلام]

زينب : [تجثو تحت ضوء القمر ثم تميل لتقرب أذنها من الأرض.. وتهمس] : آه!.. إنها تدق!.. تدق.!!

[إظلام تدريجي.. ويتعالى شيئاً فشيئاً صوت ضربات قلب فيعم المكان ويتداخل مع عواء ابن آوى الذي يبدأ وحيداً ثم يلبث أن يصبح عددا من الأصوات، تتزايد وتتزايد، لكأن عشرات بنات آوى يطلقن العواء الغريب في هدأة البراري]
انتهت

دمشق آذار ٩٧

المحتويات

ماهر رجاء يوسف «فلسطين»

- مواليد ١٩٦١ .
- صحفي وكاتب.
- يعيش ويعمل في سوريا .
- له مساهمات صحفية وابداعية منشورة في صحف سورية وعربية.